رواية

leonid andreyev

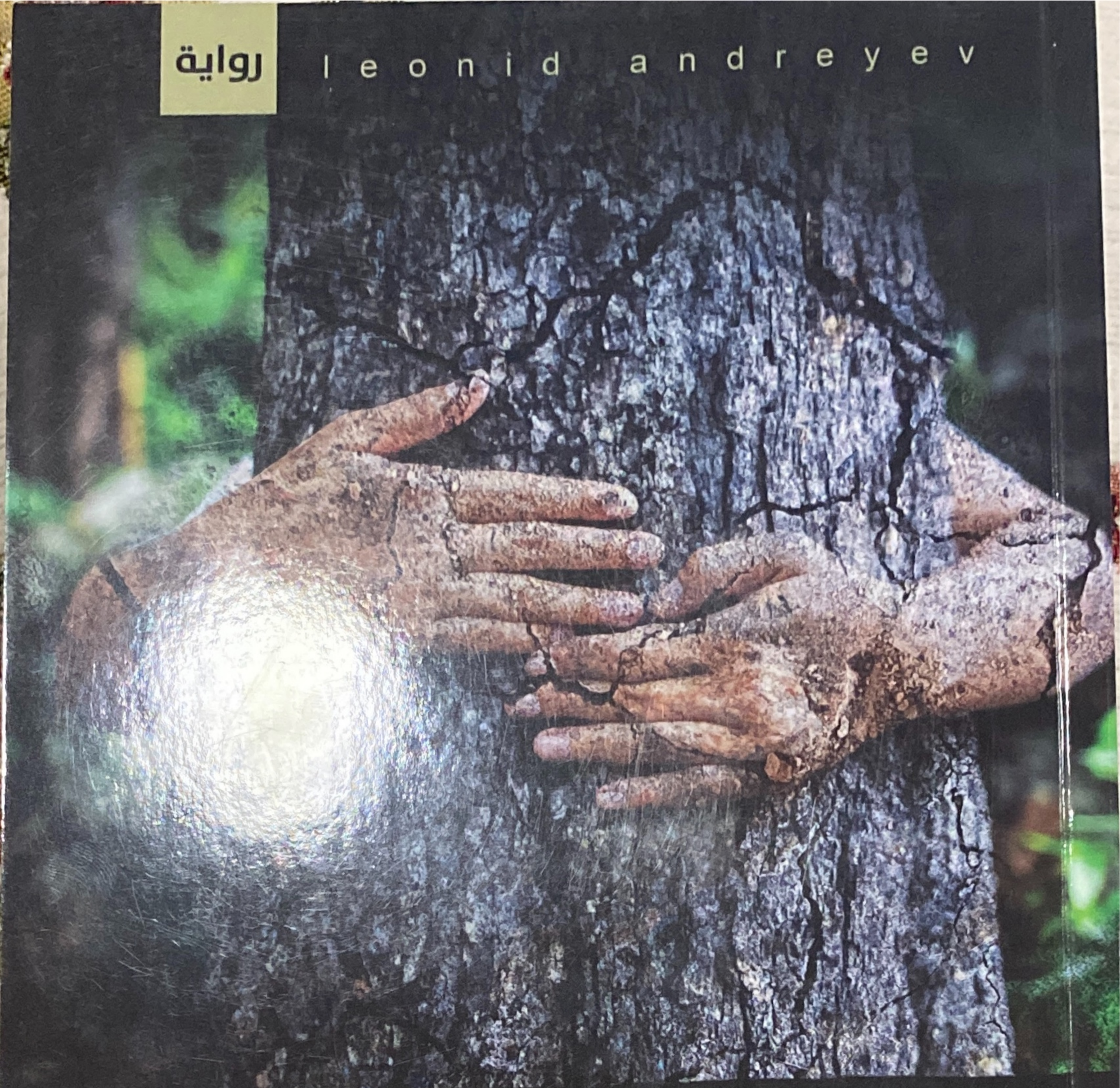

سجن بلا سقف

ليونيد أندرييف

ترجمة | منير عليمي

صفحة سبعة

الفصل الأوّل

كنتُ في السّابعة والعشرين، عندما ناقشتُ أطروحة الدّكتوراه في الرّياضياتِ، وقد كلّلت بنجاحٍ استثنائيّ. في منتصف اللّيل من اليوم نفسه، ألقي القبض عليّ، وأودعتُ السّجن. لا أجد السّاعة من جدوى، في أن أسرد تفاصيل ما نُسِبَ إليّ من جُرمٍ وحشيّ، فثمّة أشياء تباعد بين المرء وذاته، ولا يجدر به أن يتذكّرها، ولا أن يتوقّف عندها، ولكن ثمّة دونما شكّ أناسَ بين الأحياء يختزنون في الذّاكرة هولَ الحادثة، وذاك "**الإنسان المتوحِّش**"، تلك العبارة الّتي نعتتني بها الصّحفُ في تلك الفترة. وكيفَ حدث أن اتّفق المجتمعُ المتحضّر كلّه على مطلبٍ واحدٍ: **أن أُعدمَ**. ولكن بفضلِ رأفة رئيس الحكومة التي لم أجد لها تفسيرًا في ذلكَ الوقتِ، أجدُ نفسي حتّى الآن، على قيد الحياة. وها إنّا الآن، أكتبُ هذه الأسطرَ كإنارةٍ للضعيف والمتردّد.

عليَّ القولَ باقتضابٍ: إنّ أبي، وأخي الأكبرُ، وأختي.. جميعهم قتلوا بوحشيّته، وما كان لي بدّ من اقترافه حتّى أؤمّن لي الثروة.

أنا الآن رجل طاعن في السّنّ، وسأموت قريبا، ولا أحسبُ أنّك تمتلكُ المشروعيّة حتّى تشكّك في تأكيدي أنّي كنتُ بريئا من هذه الجريمة

الّتي حمَّلتُ فظاعتها لاثني عشر قاض من المشهود لهم بالنّزاهة والصّدق، على أن يصدروا في حقّي حكما بالإعدام، تحوّل بعد التّخفيف إلى حكم بالسّجن المؤبّد في زنزانة انفرادية.

لعلّها كانت حلقة مريعة أثّثتها وقائع خطيرة وأحداث عابرة، يسودها صمت مبهمٌ وكلماتٌ غامضةٌ، وفّرت لي مظهر مجرمٍ يجذبُ الشّبهة رغم براءتهِ. ومن الخطأ أن يرميني بعضهم جرّاء ردّة فعلي تجاه الأحكام القاسية بالضّعف. ولست ألومهم، **فالبشرُ الّذين يقاضون الأشياء بمظهرها ويحكمونَ عليها ليس في حولهم النّفاذ إلى بواطنهم، وهم أعجز ما يكونون على التّصرف بشكل مختلف وعلى نحو مغاير.**

بدت لعبة الأحداث المتعلّقةُ بأفعالي تسري وتمتزجُ بالحقيقة التي كنتُ أنفرد بمعرفتها، لقد رسمت مجتمعة ملامح أكذوبة وقحة وبذيئة؛ ومع ذلك كان الأمرُ يبدو غريبًا لكائنٍ مثلي يعتبرُ نفسهُ قارئا خبيرا. كان في وسعي أن أثبت براءتي فقط من خلال الإنكار فقط لا من خلال قولِ الحقيقة.

وأنا في السّجن، وبالتّزامن مع أطوار المحاكمة وتقمّصي لشخصيّة أحد القضاة، بدا لي بما لا يدعو إلى الشّكّ أنّني مذنب حقّا، عقدت الصّلة بين الأطراف، وواجهت الاعتراف والإنكار كليهما بمبادئ عامّة، ثمَّ درستُ الوقائع والكلماتِ عبر توليفاتٍ عديدة وتراكيب بنّاءة كما لو أنّني طفل يشارك أقرانه تشييد هياكلَ مختلفة بكتل خشبيّة؛ وبعدَ مجهودات متواصلة نجحتُ في النّهاية في إيجادِ توليفة معيّنة بين الوقائع

التي بدت لي على قدر من المعقوليّة، لأثبت براءتي في كنف الدّقّة، وبكثير من الوضوح.

أتذكّرُ إلى هذا اليومِ شعوري العظيم بالدّهشة. وقد خالطها الخوف، فخضتُ معهُ تجربة اكتشافٍ غريبٍ لم يكن متوقّعًا. بقولي الحقيقة، أنا أقودُ البشر إلى إثم يخدعهم ولكن عندما أعرضُ بعض الأكاذيب فأنا أقودهم في المقابلِ إلى الحقيقة والمعرفة.

لم أفهم حتّى ذلك الوقت، مثل **نيوتن وتفاحتهُ الشّهيرة**، أنني اكتشفتُ على نحوٍ مفاجئ ذلك القانون الذي يخضعُ تحت سلطتهِ كلُّ التّاريخ البشري، تاريخٌ لا يروم المطلق، ولكنّه يستهدف الممكن، ويتقصّد المظهر الخارجي من الحقيقة، بصفتها مزيجا بين المرئي والمتخيّل مبنيّا على قوانين منطقيّة صارمة. وبدل الابتهاج، تساءلتُ باندفاع ساذج وبيأس صبياني: "أين هي الحقيقةُ إذن؟... أين هي الحقيقة في عالم تسكنهُ الأشباحِ والأكاذيب؟". (أنظر إلى "يومياتي في السّجن" 29 يونيو 1918)

أعلمُ أنني في الوقتِ الحاضِر، وأنا أقفُ قبالة خمس سنوات، هي كلّ ما تبقّى لي من العمر، قد كان في وسعي أن أتمتّع بعفو لو رغبتُ في ذلكَ.

ولكن إلى جانب تعوّدي على السّجن ولأسباب أخرى متعدّدة سأتحدّثُ عنها لاحقا، لا أجد ما يسوّغ طلب الغفران، أو التماسه، ففي ذلك كسر للسّير الطّبيعي لمجرى الحكم. لا أرغبُ حتّى في سماع

النّاس وهم يطبقون عليَّ كلماتهم: "ضحيّة خطأ قضائي". أكرّر، لا يوجدُ خطأ ولن يكونَ لهُ وجودٌ فجميع المعطيات التي توفّرها ظروف الحادثة تقودُ حتمًا وبطريقة عاديّة وعقلانية إلى نتيجة واحدة.

لقد أُدنتُ باستحقاق رغم براءتي، وهذه هي الحقيقةُ البسيطة والواضحة التي أحملها. عشتُ السّعادة طيلةَ سنواتي الخمس الأخيرة التي تملّكني فيها شعورٌ بالاحترامِ تجاه هذا اليقين.

الهدفُ الوحيدُ الذي يدفعني إلى كتابةِ هذه الإشاراتِ البسيطة هو أن أظهرَ لقارئي المتلهّفِ أنّهُ تحتَ وطأة كلِّ هذه الظروفِ الأليمة، لم يبق لي ولو مجرّد غرفةٍ واحدة كي أزرع أملا أو أنعمَ بحياةٍ ما، أو بهذا الكائن الذي أحملهُ وأسمّيهِ إنسانًا. إنسانٌ تسكنه الرّغبة في حياة ممكنة. أريدُ أن أظهرَ كيف يحكم على الإنسان بالموت وهو ينظرُ إلى العالم بعينين منفتحتين عبر نافذة مشبّكةٍ في زنزانةٍ، ليكاشف أمرا عظيما؛ التآلفُ وجمالُ الكونِ والشرُّ الكامنُ في هؤلاء الحمقى الذين يعيشونَ في حرّيةٍ وفي حياة مليئة بسعادة موهومة وبافتراءٍ مقزّز.

لامني بعض زوّاري على ما اعتبروه غطرسة، وطلبوا منّي أن أنصف نفسي، لم ينتبهوا إلى تلك الابتسامة تعلو محيّاي رغم الألم، لن تهجر الابتسامة وجهي ولن تغادر مسكنها بين شفتي ما دامت الأدلّة منعدمة. لن تعمَّ الظّلمة روحي الّتي شقّت طريقها بعسر عبر الممرّات الضّيقة في هذه الحياة، روحي التي اجتازت برغبة قويّة أكثر من هاوية مريعة، حيث أمكن لأناس كثيرين تمتّعوا بنصيب من الجرأة أن يحقّقوا

أمجادهم، ولم يكن لهم في واقع الأمر من مجد غير الموت. وإذا كان لقارئي المتلهّف أن ينصت في اعترافاتي إلى بعض التّفاؤل، فليس مردّه إلى غياب الأحاسيس أو انعدامها، وإنّما هو بسبب رغبتي أن يكون فيما خضته عبرة للنّاس، ورسالة.

هنا يجبُ أن أعتذر على رسائلي المتكّررة في "**يوميات سجين**" وهي شيء مبهمٌ بالنّسبة إلى القارئ. ولكن في الواقعِ، أنا أعتبر نشر يومياتي أمرا سابقا لأوانهِ إلى حدٍّ بعيدٍ وربّما على درجة من الخطورة أيضا. لقد بدأ ذلك منذ شرعتُ في عمليّة تحرّر وحشية من الأوهام الّتي تقيّدني ومن حطامِ معتقداتي وآمالي وأنا أتنفّسُ يأسًا لا محدودًا. مفكّرتي تحملُ أدلّة في مواطن مختلفة تشيرُ إلى **أنَّ الكاتب يقفُ على حافّة الجنون.** إذا عدتُ إلى الوراء وأعدتُ وصف حجم المرضِ المعدي، فسيكونُ حذري نابعا من فرضيّة أن تصيرَ يومياتي مكشوفة تماما.

آهِ يا شبابي المزهر! بدمعةٍ منهكة في عيني أعيدُ صياغةَ أحلامكَ، رؤاكَ الجريئة وعنفوانك، طيشكَ، هيجانك، ولكن لا أريدك أن تعودَ. **الحكمة تأتي من الشّعر الأشيب فحسب ورغبتك العظيمة أن تغرق في تأمّلاتك هي الّتي تصنعُ من العجائزِ فلاسفةً وحكماء.**

الفصل الثاني

هؤلاءِ الذين شرّفوني بزيارتهم وقذفوا في داخلي أملا في أن أنال المغفرة، وعبّروا لي عن سعادتهم، وعمّا يسري في دواخلهم من صفاء، يجدون صعوبة في تخيّلِ الحالة الّتي كنتُ عليها عندما دخلتُ السّجن. عشراتُ السّنوات مرّت فوق رأسي وزرعت بياض السّنين على شعري، وخضت غمارها. كانت لحظة التّماسّ الأولى بالسّجن دامية عندما فُتِحت أبوابُه ثمَّ أغلقت خلفي إلى الأبد، وأنا أنصتُ إلى صرير القضبانِ الصّدئة. لا أمتازُ بموهبةٍ أدبيّة، ولا أرى في إقدامي على الكتابة أكثر من رغبة في تلفيق الأشياء وحياكة الأكاذيب. ومن الضّروريّ أن أقدّم نفسي إلى قارئي المتلهّف، بكيفيّة تتطابق وما كنتُ عليه في ذلك الزمن النّائي.

كنتُ في السّابعةِ والعشرين، في أوج شبابي، أنفق أيّامي في اللّهو غير عابئ، كانت سنوات مفرغة من كلّ غاية، ولكنّها ممتلئة في المقابل بتحوّلات سريعة، كنتُ أحملُ ذاتا على قدر كبير من الهشاشة، تتحكّم بانفعالاتها عاطفة عنيفة، ذات تتناوبها بطريقة عادلة نوبات من الحزن،

ومن الفرح، ورغبة في فضّ كلّ نزاعات العالم، وفي إيجاد حلول لمشاكله الجمّة.

لقد أسهمت كلّ تلك الأشياء مجتمعة في أن تهب كائنا متخصّصا في الرّياضيات شخصيّة لا متوازنةٍ على نحوٍ حادٍّ، ودرجة عالية من النّفور المحزن والقاسي.

وجبت الإشارة إلى فخري بما يميّز أفراد عائلتي من خصال، ولقد ورثت أجملها عن أمّي الّتي أغدقت عليّ من معينها، لأكون في غنى عن نصح النّاضجين من أصحاب التجارب؛ ولا يفوتني أن أنوّه بإصراري الشّديد على الظّفر بغاياتي، رغم تحوّله أحيانا إلى ضرب من التّهوّر عندما يكون الهدف ضبابيّا.

في الأيّام الأولى من إيقافي، تصرّفتُ كبقيّة الحمقى الذين تمَّ رميهم في السّجن. صرختُ بصوتٍ مرتفعٍ، بلا جدوى متشبّثًا ببراءتي. طلبتُ بعنفٍ حريّتي وضربتُ الباب والحيطان بقبضتي. ولكنّهما لزما الصّمت، فيما كنت أتألّم. ضربتُ رأسي على الحائط وفقدت الوعي لساعات وأنا مرمي على أرضية حجريّة في زنزانتي. وفي بعض الأحيانِ، حين أنهضُ، أرفضُ الطّعام إلى أن يهزم الكائن البشريّ الّذي في داخلي ذلك العناد.

لعنتُ القضاة وهدّدتهم بانتقام لا رحمة فيه. وفي النّهاية شرعتُ أتأمّلُ الحياة الإنسانية والعالم بأكمله، وبدا لي أنّ الفردوس ليس أكثر من مَظلمة هائلة، وأنّه ضرب من السّخرية والاستهزاء. بلغت الذّروة من آلامي، وفقدتُ القدرة على تمييز الأشياء وضبطها، وأصبحت رافضا

للحياة بكلّ مناحيها ودلالاتها. لقد كانت أيّامًا وليال مريعةٍ وأنا أطرقُ الحيطانَ دونَ العثورِ على إجابة عن أيّ من أسئلتي. ركضتُ في زنزانتي بلا نهايةٍ وركلتُ في هاوية الظّلمة السّحيقة كلَّ القيمِ العظيمة التي فرضتها علينا الحياة: **الصّداقةُ، الحبُّ، العقلُ والعدالةُ.**

من الأعذار التي اختلقتها لنفسي، تأثّري الشّديد، بما كابدته أوّل عهدي بالسّجن، فلقد ترك الصّدّ الّذي لقيته من فتاتي آثاره على نفسيّتي. كانت من القليلين الذين صدّقوا براءتي؛ ووعدتني ساعة الفراقِ أن تظلَّ وفيّة لي أبد الدّهر، وأنّها تفضّلُ الموت على خيانة ما بيننا. وأجدني اليوم بعد زواجها من رجل نبيل أتحفّظ عن ذكر اسمها. بعد مرور سنةٍ واحدةٍ على زواجها لم أتفهّم أنَّ ذلك الزّواج كان أمرًا طبيعيًا لفتاة شابّة وجميلة. ولكن، للأسف! جميعنا ينسى العلوم الطّبيعية عندما نُخدَعُ من المرأة التي نحبّها. ربّما تغفرُ لي هذه الحادثة ذنوبي! في هذا الوقت، تعتبر السّيدة **ن.** أمّا سعيدة ومحترمةً وهذا ما يثبتُ بطريقة أفضل من كلِّ شيء آخر أنَّ زواجها في تلك الفترة كان في منتهى الحكمة والتّوافق التّامّ مع كلِّ دعواتِ الطّبيعة التي قذفتني بعيدا وزرعت في روحي ألما مريرًا. ولكن عليَّ الاعترافُ، أنني لم أكن بالمرّة هادئا. فرسالتها المقتضبة الّتي أخبرتني فيها بأمر زواجها، حفرت عميقا في داخلي، وآلمتني، تلك الرّسالةُ الصّادقة والصديقة كان يفوحُ منها العطرُ وتحملُ بين طيّاتها آثار أصابعها الرّقيقة إلى درجة أنّها بدت رسالة من الشّيطانِ ذاته.

الرّسائلُ المكتوبةُ من نيرانٍ أحرقت دماغي ودفعتني بنشوة وحشيّة إلى تحريكِ أبواب الزّنزانة والصّراخِ بعنفٍ:

"تعالي! دعيني أحدّق في عينيكِ الكاذبتين! دعيني فقط أتلمّسُ بأصابعي حنجرتكِ الرّقيقةَ وأسكب في حشرجةِ صوتكِ ضحكتي المريرة الأخيرة!"

من هذا المقطعِ، في وسع قارئي المتلهّفِ أن يرى كم كان القضاةُ محقّين عندما قاموا بمحاكمتي كقاتلٍ؛ لقد رأوا قاتلًا ينامُ في داخلي بالفعل.

تفاقمت نظرتي الحزينةُ تجاهَ الحياةِ في تلكَ الفترةِ بتوالي الأحداث. بعد مرور سنتين على زواجِ حبيبتي، وبعدَ مرور ثلاثِ سنوات على اليوم الأول الذي وطأتُ فيه السّجن، ماتت أمّي. لقد ماتت، كما قرأت، ملتاعة، متأثّرة بمصابي، لقد ماتت كمدا، ولم يتحمّل قلبها ما حدث. رغم أنّها ظلّت فيما بلغني مقتنعة حتّى آخر لحظاتها تمام الاقتناع أنّني قد اقترفتُ جريمةً وحشيّة. لم تنطق باسمي ولا باسم من ماتوا بطريقة تراجيديّة، وسلّمت قسما من ثروتها إلى مؤسّسات خيريّة. وتركت لي في المقابل جانبا منها من شأنه أن يكفيني الحاجة في السّجن أو خارجه، لقد كان رائعا، أن أستجلي في تلك اللّحظات المريرة معنى الأمومة، وأستشعر دفئه.

الآن أستطيعُ أن أتفهّمَ عظمة الحزن الذي مرّت بهِ ولكنّهُ لم يكن السبب الوحيد في موتها، السّبب الحقيقي كان تقدّمها في السّن وسلسلة

من الأمراض التي دمّرت قوّتها وجسدها دفعة واحدة. باسم العدالةِ، عليَّ أن أقول إنَّ أبي، رجلٌ بشخصيّة ضعيفة، لم يكن ذلك الزّوج النموذج ورجل العائلة؛ من خلالِ خياناتهِ العديدةِ وأكاذيبهِ وخداعهِ قادَ أمّي إلى الغرق في يأسٍ كبير. كان يجرحُ كبرياءها ومصداقيتها بشكلٍ دائم وبصرامة. ولكنّني في ذلك الوقت لم أفهم المسألة؛ موتُ أمّي كان من بين أهم مظاهر الوحشية التي يفرضها الظلمُ الكوني.

لا أعلمُ إذا كان يتوجّبُ عليّ أن أشتّت انتباه القارئ بسردِ أحداثٍ موازية. عليّ أن أشير ولكن بوضوحٍ أنَّ أصدقائي، واحدا بعد آخر، قد توقّفوا عن زيارتي. كانوا مؤمنين ببراءتي، أو كذلك كانت تقول ألسنتهم، وقد أشفقوا على ما أصابني وحزّ في أنفسهم. ولكنّ بونا يفرق حياتهم خارج السّجن، عن حياتي داخله. ولأسباب كثيرة منها التزاماتهم المهنيّة، والنّسيان، كفّوا تدريجيّا عن زيارتي. ورغم الخيبات فإنّ الابتسامة لا تفارقني، مستهزئا من أناقتهم الفضّة كلّما عبروا بذاكرتي، مازلتُ مبتسما رغم رحيل أمّي بغتة، وخذلان من أحبّ.

"أيُّ رعبٍ هذا! أيّ ألم! أصدقائي، لمَ تركتموني وحيدًا! أصدقائي هل تتفهّمون ما الذي فعلتموه؟. لقد تركتموني وحيدًا. هل يمكنكم أن تتخيّلوا ما الذي يعنيهِ تركُ إنسانٍ بمفردهِ؟. حتّى الأفعى لها خليلها والعنكبوت لها رفيقها ولكنّكم تركتموني وحيدا! سلّمتموني قلبا، وعقلا، ويدا للمصافحةِ، شفتين للقبلةِ وتركتموني وحيدًا! ما الذي بوسعه أن يفعله الآن وقد تركتموهُ وحيدًا؟."

هكذا تساءلت في يومياتي "يوميات سجينٍ" وكابدت الحيرة. وظللت بما يسكنني من بعد صبيانيّ، وبمطلق آلامي، أتحاشى تفسير العزلة، وبدا لي ما يميّز البشريّ عن سائر الكائنات، وبها يسيّج ما في روحه من أسرارها، ويقيها عيون الغرباء.

ليأخذ قارئي الرّصينُ بعين الاعتبار ما يمكن أن يستشعره المرء إذا حرم من حقّه في أن يعتزل الحمقى والثّرثارين، وأن ينأى بنفسه عمّا يُراودهُ من قرفٍ، في المدينة الموحشةِ حيث تشرّع الأبواب والنّوافذ لمراقبة السّابلة.

كنت شابّا ضعيفا فإذا وصفت أصدقائي "بالخونة الغدّارين"، فلأنّ مفاهيم الصّداقة، الحب، التّعلقُ الهشُّ بالأخت والأم.. جميعها أشياء زائلةٌ. العالمُ مخدوع بأكاذيب الشّعراء الذين ينادون بصداقةٍ أبدية وبحبٍّ أبدي، لم أرغب في رؤية المشهد الذي يتأمّلهُ قارئي المتلهّف من نوافذ بيتهِ. كيفَ للأصدقاء، الأقاربُ، الأم، الزوجة، أن يحملوا يأسا يتجلّى في دموعهم وأن يتّبعوا الموتى إلى المقبرةِ ليعودوا منها. لا أحد يدفنُ نفسهُ مع ميّت، لا أحد يطلبُ من ميّتٍ أن يبني غرفة في كفنهِ حتى لو ارتبط الأمر بزوجة مجروحة بدموعٍ متفجّرةٍ "آه، أرجوكم، ادفنوني معهُ!" ربّما كانت تعبّرُ عن ذلك بطريقة رمزيّة عن حدّةِ يأسها. في وسع المرء أن يقنع نفسهُ بذلك بسهولةٍ فيحاول أن يدفعها في القبر. وهؤلاء الذين يكبحون رغبتها ربّما كانوا يعبّرون بطريقة رمزيّة عن شفقتهم وتفهّمهم.

على الإنسان أن يخضِعَ نفسهُ لقوانين الحياة وليس لقوانين الموت ولا لخيالات الشاعر، ولكن ربّما يكون الخضوع نوعا من الجمال. ولكن هل يمكن للخياليّ أن يكون جميلا؟. هل هناك جمال في قسوةِ الحياةِ وحقيقتها، في إجحاف قوانينها المتعالية، الّتي تتحكّم بمساراتها، وتخضعها لسلطانها، غير عابئة بحركاتِ الأجرام السّماوية، في ضرب من العبث المفزع.

الفصل الثالث

هكذا عشتُ حزينا لخمس سنواتٍ أو ست.

الشّعاعُ الأوّلُ الذي حرّرني قليلا كنتُ أترقّبهُ على الأقل.

جعلت من فتاتي القديمة هاجسا وبفضل خيالي صارت الغاية والحلم. واشتدّ يقيني أنّ هروبي من بين الجدران مسألة متعذّرة، طالما خطّطت لها في الأيّام الأولى، وتوهّمت بسبب من سوء التّقدير أنّ الأمر متاح، ولكن هيهات، ورغم تشبّثي بالغاية ومعاودة التّخطيط، فإنّ الآمال ذوت بمرور الوقت. وأنا أتأمّلُ جدران الزّنزانةِ، وقفت على ذاك البنيان المرصوص، وتحسّست عظمة الصّخور، وسماكة طبقات الإسمنت. لا أستطيع الساعة أن أحدّد ما انتابني من مشاعر، طيلة تلك المدّة. لعلّني صرت أشدّ بأسا في ثيابي الجديدة، وأكثر اعتقادا في استحالة الهروب.

وجاء اليوم الحقيقي لحرّيتي. **صباح السّادس من مايو**، وكان الطّقس ربيعيا معتدلا. كان الهواء النّقي ينسكب من خلال النّافذة المفتوحةِ. وأنا أمشي جيئة وذهابا داخل زنزانتي بطريقة لا واعية، رأيت في كلِّ التفاتةٍ باهتمامٍ باهتٍ، نافذة عالية، كان المشبكُ الحديدي يرسمُ شكلها بحدّة وبوضوحٍ على الأزرق السّماوي والسّماء الغائمة.

"لماذا تبدو السّماءُ جميلة جدّا من خلالِ هذه القضبان؟. " تأمّلتُ المشهد وأنا أمشي. "لا يعودُ الأمرُ إلى أثر القانون الجماليّ للتباينِ، بموازاة اللّون الأزرق السّماويّ للأسود، ولعلّه ناجم عن تجليّات أبعد لقوانين عليا، ليس في وسع العقل أن يدركها".

حينَ أتذكّرُ ذلكَ وأنا أحدّق عبر الشّبّاك في السّماء، تتملّكني رغبةٌ لا جدوى منها، ولا غاية، في الطّيرانِ. تحسّست القضبان فإذا هي رقيقةٌ كالحبِّ تماما. هي من إنشاء يدين لحدّاد، كان بلا شكّ يجهل ما تحمله من معنى، وكذلك كان البنّاء. وسرى فيها فجأة ضرب من الجمال والنّبلِ والقوّةِ. قضبانٌ تسجنُ الأبدية في زواياها الحديدية. تصبحُ مجمّدة في البرد وفخورة بالطمأنينة التي تزرعها، ترعبُ الجاهلَ وتقدّم غذاء الفكرة إلى الذكي وتنيرُ الحكيم!.

الفصلُ الرّابع

وجب أن أصارح قارئي المتلهّف، حتّى يكون على بيّنة من الأسباب الثّاوية وراء ما حظيت به خلال إقامتي في السّجن من حظوة، لقد كنت مختلفا عمّن فيه بنقاء في الرّوح، وبرؤية متفرّدة للحياة، لا يخطئها العارف، ونبل في المشاعر يأسر كلّ من يحادثني؛ وثمّة فضائلُ أخذتها عن آمر السّجن ووصاياه، فضلا عن انضباطي إذ لم تكن لي رغبةٌ في مخالفة التّراتيب المعمول بها.

كان زوّاري مبجّلين، فليس هنالك وقت محدّد للزّيارة، أو للمدّة الّتي يحتمل أن تستغرقها، وكانوا من فئات متعدّدة، يكنّون لي الحبّ، رجالا ونساء، ولم يكن آمر السّجن ليبخل عليّ بعبارات حفّزتني وأمدّتني بالقوّة، وكذلك كان مساعدوه على اختلاف رتبهم. وقد فوّض لي أن أستثمر فيما أكتب مكتبة السّجن وأرشيفه.

سجننا مبنى من خمسة طوابق. يقعُ في ضواحي المدينة، على حافّة حقلٍ مهجورٍ تكسوهُ الأعشابُ العالية. يجذبُ انتباه المسافر من خلال خطوطه العريضة الصلبة ويعده بالراحة والطمأنينة بعد رحلة لا نهائية. لم تكن الجدران مدهونة، لقد اكتسبت لونها الأحمر القاتم الطّبيعي من

الآجرّ القديم. لقد أخبروني إنّها تمسح البشر بتعبيرة حزينة ومريعة ، خصوصا العصبيين الذين يذكرهم الآجر الأحمر بالدّم وبالنتوءات الحمراء في القلب البشري. النّوافذ الصّغيرةُ والمظلمة ذات القضبان الحديدية تكمّلُ الانطباع وتؤدّي إلى انسجام في مستوى الحزن أو إلى جمالٍ قاس. حتّى أنّهُ أثناء الطّقس الجميل، عندما تشرقُ الشمسُ على سجننا، تذكّرُ البشر أنَّ هناك قوانين للوجود وعقابا لمن يتجاوزها.

تربض زنزانتي في الطّابق الخامس، ويطلّ شبّاكها على مشهد لا يعدم جمالا لمدينة بعيدة، وعلى جزء من حقل مهجور يمينا، وعلى اليسار، خلف حدود تخيّلي، تقع ضواحي المدينة، حيث الكنيسةُ والمقبرة. وقد انتبهت لوجودهما بقرع الأجراس الحزينة إذ كان من الأعراف أن تقرع أثناء دفن أي ميّت.

لقد بني القسم الداخلي لسجننا بطريقة جيّدة وملائمة، مطابقة للمواصفات المعماريّة السّائدة. وحتّى أكون وفيّا في توصيف السّجن، سأقدّم للقارئ بيّنة عمّا ينتظر من يتحامق ويروم الهرب. فلنفترض جدلا أنّ هذا الرّجل الأسطوريّ الخارق، قد أمكن له تحطيم الأقفال، وخلع الأبواب، وقتل السّجّانين، وتوهّم حين بلوغ الباحة أنّه حرّ.. سيجد من حوله أسوارا عالية، بطبقات صخريّة سميكة.

وأمّا حارس السّجن فكائن خرافيّ لا هو يكلّ ولا يملّ، كنت ألاحظ وجوده بشكل دائم، في ليلي ونهاري، وأنصت لخطواته من خلف الأبواب، يرمقني بعينيه عبر نافذة صغيرة، متعقّبا حركاتي وسكناتي،

ويتقرّى أفكاري وهواجسي، وبنات أفكاري. يحدث أن أخادعه نهارا بابتسامات مصطنعا الرّضا، وأمّا ليلا فأخادع نفسي بالابتسامة نفسها، مواريا ما في داخلي من تعب ومن حزن، ومن إحساس بالضّيق، وبالذّنب.

فقط أناسٌ قليلون ممن يمتلكون قوّة خارقة يراوغون الحقيقة في أحلامهم، يستطيعون بنجاحٍ أن يتحكّموا في ملامح وجوههم. أحيانًا يحتفظون بابتسامة دمثةٍ ولماعة بين شفاههم، ولكّنهم، عندما تقفُ أرواحهم فوقَ أحلامهم، يرتعدون من ذعر الكوابيس الموحشةِ. ولكن، ثمّة استثناءات، ولا يمكنُ أخذُ هذه الأشياء في عين الاعتبار. تتملّكني سعادة رهيبة لأنني لستُ مجرما ولأنّ ضميري واضح وصاف.

"اقرأ، يا صديقي، اقرأ" أقولُ للعين المتأمّلة وأنا أستلقي في طمأنينة "لن تقدر على قراءة أيِّ شيء في وجهي!"

لقد كنتُ أنا من اخترع النّافذة في باب السّجن.

أشعرُ أنَّ قارئي مدهوشٌ ويبتسمُ وهو يشكُّ في الأمر، فلو أرجعنا الأمر للعقلِ لأمكن للمرءِ أن يلقّبني بالكاذب العجوز، ولكن هناك أمثلة يكونُ فيها التّواضع بلا جدوى وخطيرا حتّى. نعم، هذا الاكتشافُ البسيطُ والعظيمُ يرتبطُ بي مثلما يرتبطُ نظامُ نيوتن بنيوتن وترتبطُ قوانينُ كيبلر للحركة الكوكبية بكيبلر. مكّنني ما أملك من قدرات على إبداع سلسلةً من الابتكارات الصّغيرة؛ ذلك أنَّ شكل السّلاسلِ والأقفالِ في سجننا قد تمَّ تغييرها.

النافذة الصغيرة في الباب كانت من اكتشافي وإذا تجرأ أحد على إنكار ذلك فسألقّبهُ بالكاذب والوغد.

وصلتُ إلى هذا الاكتشاف تحت مجموعة من الظّروف الآتية: في يومٍ ما، أثناء عمليّة المناداة على أسماء المساجين، قتلَ سجين مّا المحقِّق الذي دخل الزنزانة وذلكَ بساق سريره الحديدية. بالطّبع كان ذلك الوغدُ معلّقا في فناء سجننا وضوء الإدارة يضيء في هدوء ولكنّني كنتُ على درجة كبيرة من اليأس. لقد أثبت السّجن أنّه لن يقدّم شيئا ما دامت الأفعال المريعة ممكنة. كيف لم يلحظ أحدٌ أن السّجين قد كسر ساق سريره؟. كيف لم يلحظ أحدٌ حالة الهيجان التي كان عليها السّجينُ قبل إقدامهِ على تلك الجريمة؟.

بعد انقضاءِ أسبوعين أو ثلاثة أسابيع وصلتُ بسهولةٍ وبطريقة لم أتوقّعها إلى اكتشافٍ عظيمٍ. أعترفُ بصراحةٍ أنني قبل عرض اكتشافي على آمر السّجنِ سبق لي أن عشتُ لحظات من التّردّد الذي كان أمرًا طبيعيا جدّا في مكاني كسجين. القارئ الذي سيكونُ متردّدا إلى الآن، يعلمُ أنني سأكون رجلا على درجة من الوضوح والضّمير النقي. سأجيبُ عن السّؤال بفقرة من "**يوميات سجين**" ترتبطُ بتلك اللحظة:

"كم هو أمرٌ صعبٌ أن تقفَ في موضع رجل متّهم رغم براءته، مثلي تماما. إذ كان حزينًا وشفتاهُ قد أغلقتا في صمت وعيناهُ قد خفضتا بينما النّاسُ يتحدّثون عنهُ: لقد تاب، إنّهُ يعاني من تأنيب الضّمير".

"إذا كان يبتسمُ في سعادة وهناء داخلَ قلبهِ الصّافي سيعتقدُ الحارسُ قائلا: هناك، بابتسامتهِ الخادعةِ والمختلقةِ، يتمنّى أن يخفي أسرارهُ".

"لا فائدة ممّا يفعلهُ، إنّهُ يبدو متّهمًا، إنّها قوّة التّحيّز التي لا بدَّ من مواجهتها. ولكنّني بريء وعليَّ أن أكون أنا ذاتي، على درجة من الثقة العليا بصفائي الرّوحي الذي سيحطّمُ سحر التّحيز الخبيث".

في اليوم الموالي ضغط آمرُ السّجن على يدي بحرارةٍ، وهو يعبّرُ عن امتنانهِ لي، وبعد مضيّ شهر، صار في وسعي أن أتأمّل الحقل بشكل ممتدّ، بعد أن جعلت ثقوبا في الأبواب جميعها.

منحتني التّراتيب السّجنيّة شعورا بعميق الرّضا، لقد كان كلّ شيء على قدر من المعقوليّة العالية، نهوضنا الباكر، أو استلقاؤنا، ساعة الغداء. وبمرور الوقت تحوّلت تلك الأشياء عن قهريّتها إلى حالة بديهيّة، وإلى مطلب حميميّ، له إيقاعه في أنفسنا، وتحوّلتُ من كائن عصبيّ هشّ الأحاسيس زمن حرّيّتي إلى كائن هادئ، رصين، صرتُ أشدّ شكيمة وأكثر قوّة، على المستويين، النّفسيّ، والجسديّ، فنيّا رغم سنواتي السّتّين، لستُ بدينًا ولستُ نحيفًا أيضًا. رئتاي في حال جيّدةٍ، وحافظتُ إلى الآن على أغلبِ أسناني، باستثناء اثنتين قرّرتا السّقوط. أنا كائنٌ حي وأمتازُ بمزاجٍ جيّدٍ: نومي عميقٌ وفي أغلب الأحيان دون أحلامٍ. ممتلئ بالثّقة، وبالثّبات، وملامح وجهي، تشبه بطريقة ما منحوتة يوليوس قيصر لمايكل أنجلو.

أبدو متماسك البنية، بلا أعراض، فلا وهن وما من فتور، فمن أفضال السّجن أنّه قد دفع عنّي تلك النّوائب المحتملة جرّاء الحياة اليوميّة. لا أهل ولا أصدقاء، ولا كدمات ممّا ينجم في العادة عن أخبار الموت،أو عن مرض من نحبّ، أو خيانتهم لنا، وأمّا تمثّلي للحبّ فقد ظلّ بمنأى عن تلك الدراما، والأحداث التراجيديّة، لقد ارتفع إلى مرتبة سامية لا شيء يكدّر صفوها، من تلك التّفاهات، إنّه في قلبي، أبديّ وناصع.

يومي واضحٌ وكذلك أيّام المستقبل التي تتّجهُ نحوي في ألقٍ. لن يقتحم عليّ خلوتي سارق، ولن تصدمني عربة مجنونة، لن يرعبني ألمُ طفلٍ، ولن تجرحني خيانة، عقلي حرٌّ، قلبي هادئ وروحي صافية ولامعة.

قوانين السّجن الصّارمة والصّريحة، جنّبتني أشياء كثيرة وحماقات، وحرّرتني من لحظات التّردد التي لا تطاق، ودفعت عنّي ما يعتمر الحياة من شكوك. ربّما اخترقت تلك الطّمأنينة ببعض العوارض، ولكنّ الحياة السّجنيّة تظلّ بنظمها وتراتيبها متسقة، ورغم ما يطرأ من حوادث، ومن مشاحنات عنيفة، ومن محاولات فاشلة للهرب، ومن إعدامات، فإنّها تحافظ بعدُ على جوهريتها.

نظرتي إلى الحياة واضحة وصافية، ولا أعدِمُ في داخلي شعورا بالاتّزان وبنوع من الألفة، أجد الاحترام من لدن الجميع، وأستشعر الفخر، وإنّي لمدين لما في نفسي من قدرات كامنة اكتشفتها بالتدرّج. **ربّما ذهب**

غيري ضحيّة للجنون ولليأس أو الحزن؟. ولكنّني صنعت عالمي وشيّدته بالطّريقة الّتي أريد، وحقّقت تناغمي، وأفحمت العالم بهدوئي وبما حقّقته لي من سكينة داخليّة، ومن يقين ثابت، وأعتذر إلى قارئي عمّا يمكن أن يبدو له من انفعال، ومن مشاعر متفجّرة أحيانا، إذ لا يليق بالمرء أن يقع في الضّعف، ولا فائدة من الصّراخ، فالصّمت أقوى الأسلحة، إنّه الحقيقة في كلّ هذا الزّيف.

ملاحظة: لا أتذكّرُ أنني أخبرتك عن المجرم الّذي قتلَ أبي ولم يعثروا عليه بعد.

الفصل الخامس

يوجب عليّ الانتقال من مرحلة إلى أخرى من السّرد التّاريخيّ، أن أطلع قارئي في أسطر قليلة على عيّنة ممّن عاشرت في السّجن.

في مساء مّا بعد مرور أيّامٍ قليلة، أخبرني آمر السّجن عن شخص يقبع فيه. شخصٌ سيء الحظ في وسعي أن أمارسَ عليهِ نفوذا سيكونُ لفائدتهِ. عبّرتُ عن رغبتي في ذلك بطريقة ودّية جدًا، ولأيّامٍ كثيرة متواصلةٍ قمتُ بمحاوراتٍ طويلةٍ مع الرّسّام **ك**. بعدما أخذتُ الإذن من آمر السّجن. لقد كانَ شبحًا.. زرعَ في داخلهِ كمّاً من الحقد والتّكبّر التقى بحجمِ النّدم الذي في داخلي، قبل الالتقاء بي في أوّل زيارة ثمّ توارى، أنصت أثناءها برغبةٍ واهتمامٍ إلى كلماتي الهادئة قبلَ أن يخبرني تدريجيا بقصّتهِ الغريبةِ بعد سلسلة من الأسئلةِ المتواصلة.

هو شابّ في الخامسة والعشرين، بمظهرٍ لطيفٍ وأخلاقٍ كريمة تظهرُ أنّهُ رجلٌ مهذّبٌ. ثمّة طلاقةٌ وسلاسةٌ في حديثهِ ونوعٌ من الحماقة العاطفيّة في كيفيّة تعبيره عن نفسهِ تواري خلفها مرارة، يمزج في آن بينِ السّخرية العالية والجدّ المؤلم، لم أجد فيه الشّخص الودود ولم يكن يخلو

من غرابة، وأكثر ما أزعجني فيه عادته المقززةِ في تحريكِ أصابعهِ الهزيلة والضّعيفةِ والإمساك بيدِ أي شخصٍ يتكلّم معهُ في وهنٍ.

أخبرني **ك**. القليل من ماضي حياتهِ.

"حسنا، ما الّذي هناك كي أتحّدثُ عنه؟. لقد كنتُ رسّامًا، هذا كل ما في الأمر" كرّر بنظرة حزينةٍ ورفض الحديث عن "الحادثة الخالدةِ" التي أدين بسببها، وحكم عليه بالسّجنِ في زنزانةٍ انفراديّةٍ.

"بصدقٍ، لا أريدُ أن أقاطعكَ".

حاولتُ التّعامل مع الأمر بنبرةٍ مغايرة نوعا مّا فكانت وسيلة للتعامل مع المسألة ببساطة وذلك بغاية خلق سعادةٍ في آمرِ السّجنِ. لقد عرفتُ من السّجين سبب معاناته الحقيقية التي تبدو في بعض الأحيان شكلًا شديدا للعنف والتّهديدات. أثناء دقيقة من الدقائق المؤلمة، عندما كانت رغبةُ **ك**. ضعيفةً كنتيجةٍ للأرق الذي كان يعاني منهُ، جلستُ على حافة سريرهِ وعاملتهُ بنوعٍ من الحنوّ فأفشى لي بكلِّ شيء يتملّكهُ. لا أرغبُ في إرهاقِ القارئ بمقدّمة دقيقةٍ حولَ انفعالاتهِ الهستيريّة وضحكاتهِ ودموعهِ، ولكنّني سأقدّمُ فقط بعض حقائقِ هذه القصّة.

لقد كانَ حزنهُ مكشوفا، كامنا في تلكَ الحقيقة التي أراها أمامي، فعوض امتلاكهِ لورقةٍ أو لوحةٍ من أجلِ رسمِ لوحاتهِ، كان يكتفي بلوحة طويلة وقلم رصاصٍ. (بالمناسبةِ، لقد أكسبته خبرته الفنّيّة القدرة على استثمار تلك الموادّ، وبدا لي بعد اطّلاعي على بعض من أعماله أنّها

مرضية، وفي استطاعتها أن تسترضي من هو مخنصّ، لا خبرة لي بالرّسم، وأفضّلُ العيش منسجمًا مع الطبيعة وحقيقتها) ولهذا، كان **ك**. قبل الشّروع في رسمِ لوحةٍ جديدة يبادر بحذفِ الرّسم القديم من اللّوحة وهذا ما كان يقودهُ في أغلبِ الأحيانِ إلى حافّة الجنونِ.

"لا يمكنكَ استيعابُ ما يعنيهِ ذلك" كان يقولُ وهو يمسكُ بيدي بأصابعهِ الرّقيقةِ. "أنت تعلمُ أنّني عندما أرسمُ، أنسى كلّيًّا أن لا جدوى من هذا الأمر؛ عادةً ما تتملّكني سعادة أثناء ذلك وأنا أمزجها بإصدار نغمةٍ من شفتي. حدث مرّة أن عوقبت بسبب هذا الأمر، إذ كان ممنوعًا أن أصفّر في هذا السّجن اللّعين. لكنَّ ذلك أمرٌ تافهٌ فعلى الأقل، تتوفّر لي بذلك فرصةُ أن أنام نومة هادئة. ولكنّني عندما أنهيتُ لوحتي، لا، عندما اقتربتُ من إكمالها، تملّكني شعورٌ مرعبٌ وأحسستُ كما لو أنّني أمزّقُ عقلي من رأسي وأسحقهُ تحت قدمي. هل تفهمني؟."

" أفهمكَ يا صديقي، أنا أفهمك جيّدًا ومتعاطفٌ معك".

"حقًّا؟. حسنا، أنصت أيّها العجوز. كنتُ أكملُ لوحتي بكثيرٍ من الألمِ، بإحساسٍ بالحزن واليأسِ كما لو أنّني أودّع من أحببت. ولكنّني الآن أكملتُ لوحتي. هل تفهمُ ما تعنيهِ؟. ذلك يعني أنّها تملكُ حياة ذات مغزى، أنّها تنبضُ، وأنَّ لديها روحا ملغزة في داخلها. ورغم ذلك، فإنّ مصيرها الموت. هي الآنَ ميّتةٌ، ميّتة كسمكِ الرّنكةِ. هل تستطيعُ تفهّم ذلك؟. أنا لا أفهمُ ذلك. والآن، تخيّل، أنا مجنون ورغمَ ذلك فأنا سعيدٌ. أنا أبكي ورغمَ ذلك تسكنني سعادةٌ. لا، أعتقدُ أنهُ لا يتوجّبُ

عليَّ تدميرُ هذه اللوحة، إنّها جميلةٌ ولهذا لا يجبُ تدميرها. دعها تعش. وبالفعلِ، يحدثُ أحيانًا أن أقرّر أن لا أقدمَ على رسمِ أيِّ شيء جديد، لا أملكُ رغبة في ذلك وهذا ما يجعلُ الأمر مروّعا. هل تفهمني؟..."

"جيّدٌ جدًّا يا صديقي. لا شكَّ أنَّ الرّسم سيتوقّفُ عن اسعادكِ في اليومِ الموالي. "

"أوه، هذا هراء. أنت تثرثر أيّها العجوز! (هذا ما قالهُ تحديدًا "هراء") كيفَ لطفلٍ يحتضرُ أن يسعدكَ؟. بالطّبعِ، سيسعدك إذا ظلَّ على قيد الحياة، ربّما سيصبحَ بذلك وغدًا، ولكن إذا كان يحتضرُ فالأمرُ مختلفٌ. أنا أقتلها بنفسي. لم أنم كاملَ الليل، أقفزُ وأنظرُ إليها وأغرقُ في حبّها وأشعرُ كما لو كنتُ أسرقها. أسرقها ممّن؟. ما الذي أعرفهُ؟. ولكنّني، عندما يأتي الصّباح، أعجزُ عن الامتناعِ عن ذلكَ، فأمسكُ بالقلمِ اللّعين مرّة أخرى وأرسمُ لوحةً ثانية. أيّة سخريةٍ في ذلك! أيّ عبدٍ أنا، مصيرهُ أن يجدّف أكثرَ".

"يا صديقي، أنتَ في السجن."

"يا عجوزي العزيز! عندما أتسلّلُ بممسحةٍ في يدي، يتملّكني شعورٌ أنّني أشبهُ ما أكون بقاتلٍ. حدثُ أن تحوّلتُ حولها ليومٍ أو يومين. هل تعلمُ أنّني في يوم ما قضمتُ أصبعا في يدي اليمنى كي لا أرسمَ ثانية ولكن بالطّبع، كان ذلك مجرّد مزحة فقد شرعتُ في الرّسم بيدي اليسرى. أيّة رغبةٍ تجرفني إلى ذلك! أن أرسمَ بكلِّ الوسائلِ، أن أرسم

من أجلِ المعاناة. أن أرسمَ مع يقيني أنَّ كلَّ ما أرسمهُ سيتلاشى! هل تفهمني؟."

"أكملها يا صديقي، لا تكن مرتبكًا. سأبسطُ لك رؤيتي تجاه ما رسمتهُ."

للأسف، وجدت نصيحتي صعوبة في بلوغِ آذانِ **ك**. في أحد نوباتِ الاكتئاب التي أخافت آمر السّجنِ خاصّتنا، شرع **ك**. في رمي نفسهِ على السّرير وتمزيقِ ملابسهِ والصّراخ والنّشيج مبينا جميع الأعراض الحادّة للموت.

نظرتُ إلى معاناة شابٌّ سيء الحظِّ بحزنٍ عميقٍ (لقد كان شابًّا مقارنة بي) عبثا كان يحاولُ أن يستجمع أصابعهُ التي كانت تمزّق ملابسهُ. علمتُ أنّ ثمّة ثغرة جديدة في قانون الانضباطِ في السّجن تنتظرهُ.

"آهٍ أيّها الشّابُّ الطّائشُ" فكّرتُ عندما هدأ قليلا بينما كنتُ أربّتُ على شعره الرّطب الذي أضحى متشابكًا "كيف سقطت بسهولة في هذا اليأس! مجرّدُ لوحة ستقعُ في النّهايةِ بين يدي تاجرٍ في خرقٍ بالية" بالطّبع لم أخبر صديقي الشّاب بذلك، ولكنّني سعيتُ مثل كلِّ شخصٍ يجدُ نفسهُ تحت تلك العوامل إلى عدم إزعاجهِ بتناقضاتٍ لا أهمّية لها.

بدا **ك**. هادئا نوعا ما الآن، قال: "شكرًا أيها العجوز، بدوت لي غريبا منذ البداية وترددت في أن أطلعك على حقيقتي؛ ولكن على

ملامح وجهك يرتسم وقار هو عكس ما تبديه عيناك من قلق، فهل قتلت أحدهم أيّها العجوز؟."

تلقّيت كلماته بحذر، وتكتّمت على ما تواريه من خبث، وبشيء من الحكمة استخلصت كيف أنّ مجرّد اتّهام قد يتحوّل باطّراده إلى حقيقة مثبتة تصدح بها أعيننا وتشعّ منها، واستشعرت مرارة لا تطاق، وأنا أواجه وقاحة الشّابّ بقولي:

"أنتَ رسّام يا بني؛ بالنّسبة إليك، جميع الألغاز التي تكمنُ في وجهِ المرء معلومةٌ. وجهُ المرءِ الذي يبدو قناعًا ليّنًا ومتغيّرًا ومخادعًا، كالبحرِ تمامًا، يعكسُ الغيوم المسرعة والأزرق السّماوي المنعكس من السماء الصّافية. ويصبحُ بحرًا أخضر حين تخيّمُ الظلمة على الغيوم الكثيفة، ويصيرُ لونهُ أزرق تحت السّماء الصّافية ورماديا حين تكونُ السّماء رماديّةً. مالذي تريدهُ من وجهي الذي علّقت فيه إدانتي بأكثر الجرائم وحشة؟..."

ولكنّهُ كان منشغلا بأفكارهِ. فلم يعر الرّسامُ كلامي اهتماما وواصل الكلام بصوتٍ مكسورٍ:

"ما الذي عليَّ فعلهُ؟. لقد دمّرت لوحتي ومرّ أسبوع على آخر مرّة لامست فيها القلم. بالطّبعِ، كان من الأفضل أن أحطّم لوحتي ومن أجل معاقبتي لن يقدّموا إلي لوحة أخرى".

"كان من الأفضلِ لك أن تعيدها إلى السّلطات".

"جيّدٌ جدًّا، أستطيعُ أن أتحمّل الأمر لأسبوع إضافي، ولكن ما الذي سيحدثُ بعد ذلك؟. أنا أعلمُ بنفسي. حتّى اللّحظة، يتحسّس الشّيطانُ يدي ويقولُ: أمسك بالقلم ،أمسك بالقلم".

لمحت عيناي وهما تطوفان بالزّنزانة، ملابس الرّسّام، مبعثرة في الزّنزانة، عُلّق بعضها على الحائط، ورُبط بعضها إلى السّرير. ورمقت اللّوحات على الجدران، تكاد تغصّ بها.

لقد قفزَ الرّسّامُ للتوّ من سريرهِ فوجدنا أنفسنا في النّهاية ننظرُ إلى بعضنا البعض. قلتُ بنبرة تقرّب لطيفةٍ:

"كيفَ سمحتَ لنفسكَ أن تفعلَ هذا يا صديقي؟... أنتَ على علم بتعاليم السّجن الّتي لا تسمحُ بأيّ نقوش أو رسومٍ على الحائطِ".

قال **ك**. في حزنٍ: "أنا لا أعلمُ أيّة تعاليم".

واصلتُ الحديث بصرامة: "لقد كذبتَ عليّ أيها الصّديق. ألم تخبرني أنّك لم تمسك بالقلمِ كامل الأسبوع".

"بالطّبع لم أفعل ذلك".

أجابَ الرّسامُ بابتسامةٍ غريبة فيها الكثير من التّحدّي. محافظا على رباطة جأشه وعلى سخريته. تفحّصت اللّوحات الّتي عكست وجوهًا إنسانية مختلفة في مواضع متنوّعة. صرتُ مهتمّا بلونٍ أحمر وأصفر ينبعُ من قلمٍ مجهولٍ.

"هل هذا يوديّ إلي...؟. لقد أخبرتني أنّك تعاني من ألمٍ وأنّك تتعالجُ باليود".

"لا. إنّهُ دمٌ".

"دم؟."

"نعم".

عليّ أن أصارح بالقول إنّني بلغتُ درجة الإعجابِ بهِ في تلك الفترةِ.

"كيف حصلت عليه؟."

"من يدي".

"من يديك؟. كيف تمكّنت من إخفاء نفسك من العيون الّتي تترقبك؟."

ابتسم بخبثٍ وغمز لي.

"هل تعلمُ أنّه في وسعكَ أن تخدع المرء دائما إذا رغبتَ في ذلك؟."

تبعثرت شفقتي تجاهه على الفور. رأيتُ أمامي رجلًا لم يكن على درجة من الذّكاء بتاتًا ولكن من المرجّح دائما أنّهُ رجلٌ مسلوبٌ، لم يعترف بعدُ بفكرةِ أنَّ هناكَ أناسا لا يستطيعون الكذب. تذكّرتُ وعدي للسّجّان فحدّثته بكثير من الهدوء، وبحنوّ أمّ على ولدها:

"ليس عليك أن تتفاجأ واعذر صرامتي، أنا شيخ طاعن في السّنّ أمضيت نصف عمري في السّجن، وقد تشكّلت لديّ قناعات ومبادئ، واكتسبت خبرات، ككلّ العجائز، ولا أنكر في بعض الأحيان إلحاحي على الآخرين أن ينصتوا إليّ وأن يأخذوا نصحي بعين الاعتبار، وأحسب أنّك ستتخلّى عن لوحاتك، دون شكّ، رغم إحساسي بالألم، فأنا لا أنكر انشدادي إليها، فلننس ما حدث، ولنتجاوزه، أيرضيك الأمر؟."

قالَ كما لو أنَّ النّعاس قد قيّدهُ:

"جيّدٌ جدّا".

"في سجننا، تكمنُ لدينا متعة حزينة في أن نكونَ مسجونين. كلُّ شيء متّسق مع القوانين، منسجم مع الغايات إنَّ النّظامَ الصّارم لابتكاراتنا يحاصره زمن ضيّق، ربّما عليَّ القولُ إنّها عابرةٌ ولكنها تحملُ حكمةً عظيمة. اسمح لنفسكَ بأن تخلقَ كمالكَ في فنّكَ. إنّها تحمي البشر بحكمةٍ من تأثيرات أعمالكَ الجارحة. وفي كلِّ الحالاتِ هي تكتملُ بطريقةٍ منطقيّة وترسمُ معنى واضحا لسجنكَ الانفرادي. ما الذي يعنيهِ السّجن الانفرادي بالنسبةِ إليك؟. هذا يعني أنَّ السّجين عليهِ أن يكونَ وحيدًا. ولكنّهُ من خلالِ ما ينتجهُ بطريقة أو بأخرى يمكنهُ الحديث مع أناسٍ في الخارجِ؟."

من خلالِ تعبيرة وجه **ك**. لمحتُ سعادةً عميقةً كانت نتيجة لكلماتي التي زرعت في داخلهِ انطباعًا جيّدا وعادت بهِ من مملكة الابتكارات

الشّعريّةِ إلى أرضِ القسوة التي تحملُ حقيقة جميلةً. رفّعتُ من صوتي وواصلتُ:

"لا يبدو القانون الّذي يمنع أيّ كتابة أو رسم على جدران السّجن، منطقيّا بالمرّة، ومن الرّائع أنّك قد كسرته وانقلبت عليه، ستمضي سنواتٌ، وفي مكانكَ هذا من المؤكّد أنَّ سجينًا آخر سيأخذُ مكانك وربّما سيرى ما رسمتهُ. هل سيكونُ متسامحًا مع الأمر؟... فقط فكّر في الأمر! وما الذي سيحلُّ بحيطانِ السّجن إذا رغب أيّ كان بتدوين انطباعاته؟."

"عليها اللعنة!"

هذا ما قالهُ **ك**. بالتّحديد وهو يعبّرُ عن نفسهِ. لقد قال كلماته بصوتٍ مرتفعٍ كما لو كان يتنفسُ مِن خلالها.

"ما الذي تعنيهِ بقولك هذا، صديقي الشّاب؟."

"أودُّ القول إنّهُ من الممكن أن تفنى هنا، يا صديقي العجوز. ولكنني سوف أغادرُ هذا المكان".

أجبتهُ بقسوةٍ: "لكنّك لن تستطيع الهروب من السّجن.

"هل حاولتَ؟."

نظرَ إليَّ بارتيابٍ وابتسمَ. لقد ابتسم!

"أنت جبانٌ أيّها العجوز. أنت ببساطة عجوز بائس".

أنا جبان! آه، فقط لو عرفَ هذا الجرو عاصفة الغضب التي أثارها في روحي سيكون عليهِ أن ينتحبَ وأن يخفي نفسهُ في السّرير. أنا جبان! تفتّت العالم فوق رأسي. انطلاقا من خططي وأهدافي: قوى الشّر التي تكمنُ في الحياة، العزلةُ، السّجنُ، الغدر، الكذب.. جميع هذه الأشياء ترفعُ أذرعها نحوي ولكنّني حدّدتها وجهةً لإرادتي. أنا الذي واجهتُ تلك الأشياء، حتّى أهدافي.. جبانٌ؟.

ولكنّني لا يجبُ أن أرهقَ اهتمام قارئي المتلهّف بهذه الانحرافاتِ الغنائية التي لا تحملُ أهمّية ولهذا أواصلُ.

بعدَ توقّفٍ اخترقهُ نفسٌ عميق ل **ك**. قلتُ متوجّها إليهِ في حزنٍ:

"أنا جبانٌ! هل تقولُ هذا لرجلٍ أتى لغايةٍ واحدةٍ أن يساعدك؟... أن يساعدك ليس بالقولِ فقط بل وبالفعلِ كذلك؟..."

"هل تريدُ مساعدتي؟. بأيّة طريقة؟."

"سأسلّمكَ ورقة وقلما".

كانَ الرّسامُ صامتًا. حين سألني بتردّدٍ كان صوتهُ ناعما وهادئا.

"ماذا عن لوحاتي، هل ستظلُّ؟."

"نعم، ستبقى هنا".

من الصّعبِ أن تصفَ السّعادة القويّة التي اجتاحت رجلا شابًّا تمَّ الزّجُ بهِ في السّجن. الشّابُّ البريء الذي يملكُ قلبا نقيّا لا يعرفُ حدودًا

لا للحزنِ ولا للسعادة. قبضَ على يديَّ في حرارة وصافحني مزعجا عظامي التي شاخت؛ خاطبني بصديقي وأحيانًا بأبي وبحشد من الصّفات ومن الأسماء المحبّبة والغريبة نوعًا ما. ندمتُ أنَّ محادثتنا تواصلتُ لفترةٍ طويلةٍ ولم أصمد أمام تضرّع الشّاب الذي لم يغادر معي حين أسرعتُ نحو زنزانتي.

لم أغادر إلى السّجان إذ شعرتُ نوعًا ما بالقلق. ظللتُ في زنزانتي لوقت متأخّرٍ حتّى بلغتُ منتصف الليل وأنا أبذلُ ما في وسعي كي أفهم معنى الهروب من سجننا وكيف يمكنُ لذلك الشّاب المجنون أن ينجح في ذلك. هل من الممكن أن نهرب من السّجن؟... لا يمكنني أن أقرَّ بذلك ولا يجبُ عليّ الإقرار به. استحضرتُ شيئا فشيئا كلَّ شيء في ذاكرتي أعرفهُ عن السّجنِ وفهمتُ من الأمر أنَّ ك. قد عثر على خطّة قديمةٍ أهملتها أنا منذُ وقت طويلٍ وأنّهُ سيسعى إلى إقناع نفسهِ باستحالة تطبيقها كما أقنعتُ أنفسي. إنّه من المستحيل الهروب من السّجن.

ولكنّ الألمَ يسري مع شكوكٍ كثيرة. قستُ زنزانتي وحيدًا منذُ وقتٍ طويلٍ وأنا أفكّرُ في خططٍ كثيرةٍ قد تخلصُ ك. من موقفهِ ومن فكرةِ الهروب. لا يجبُ عليهِ الهروب من الزنزانةِ تحت أية ظروفٍ. نمتُ بعد ذلك نومة هادئة ومطمئنّة. ذلك النّوم الذي تضفيهِ الطّبيعة على الضّمائر الصافية والأرواح النّقيّة.

بالمناسبةِ، خشية أن أنسى، عليّ الإشارة إلى أنّني قمتُ بتدمير "**يوميّات سجين**" في تلك الليلة. لقد تمنيتُ القيام بذلك منذ وقتٍ

طويلٍ ولكنّ الشّفقة والضّعف والحب الذي نشعرُ بهِ وهو يتخبّطُ، أشياء تقيّدني؛ إلى جانب ذلك، لا يوجدُ شيء في "يومياتي" في وسعهِ أن يغفر لي بأية طريقة. وإذا قمتُ بتدميرها الآن فذلك بسبب رغبتي وحدها في أن أرمي الماضي في بحرٍ من النّسيان وأنقذ قارئي من الضّجر الذي تسبب فيه تذمّري، ولعناتي المريعةِ والمدنّسة. لتنم "يومياتي" في سلام!

الفصل السّادس

نقلتُ إلى آمر السّجنِ ما دار في محادثتي مع **ك**. وأخبرتهُ أن لا يقومَ بمعاقبة الشّاب بسببِ تلويثهِ للحيطانِ. واقترحتُ عليه من أجل ذلك خطّة، قبلها بعد الاعتراضِ على نقاطٍ شكليّةٍ.

"سيكونُ من المهمِّ جدًّا أن تتمّ المحافظة على لوحاتهِ، ولكن يبدو جليّا أنَّ هذه اللّوحاتُ قطعة من روحهِ. دعهُ إذن يستغلُّ طاقتهُ من أجلِ هذا الفن ويرسمُ بورتريها شخصيّا لك ثمَّ يقومُ برسم بورتريهاتٍ لكاملِ فريقك من الموظّفين. سيكونُ ذلك شرفا لهُ وسيتصرّفُ بفخرٍ شديد. ومن المؤكّدِ أنّه سيعرفُ كيف يتعاملُ مع هذا التّقدير. ستكونُ اللّوحةُ مفيدةً لك كزينةٍ أصلية تضعها في غرفة الرّسوماتِ أو في المكتب. إلى جانبِ ذلك، لن يمنعنا شيءٌ من تحطيمِ اللّوحاتِ متى أردنا، ما دام ذلك الشّابّ السّاذجُ والأناني لا يعيرُ اهتمامًا لفكرةِ أنَّ في وسعِ أي فردٍ أن يحطّم ما يقومُ برسمهِ".

ابتسمَ السّجانُ، واقترحَ بخُلُقٍ حطّمني بحدّة، أن تظلَّ اللّوحاتُ معي. لقد نقلتُ ما قالهُ لي السّجانُ كلمة كلمة:

"إنَّ وجهكَ يدعو إلى أن يتمّ رسمهُ في لوحةٍ. سنقومُ بتعليقِ صورتكَ في المكتب".

إنّها الحماسةُ التي يزرعها الابداعُ. لقد كانت تلك مجرّدُ كلمات قد تنطبقُ على حسِّ الإثارةِ العاطفية الصّامتة التي زرعت في وجهي. لقد تعوّد أن يكونَ كائنا تسكنهُ الثرثرة والآن، لقد ظلَّ صامتًا لساعاتٍ كي يتركَ مزاحي وملاحظاتي معلّقة بلا إجابةٍ.

"اصمت أيّها العجوز، اصمت. أنت أفضلُ عندما تكون صامتا".

كرّر ذلك باستمرارٍ وهو يبتسمُ ابتسامةً لا إراديّة ترسمها حماستهُ كشخصٍ متمرس.

ستذكّرك لوحتي، قارئي المتلهّفِ، بتلكَ الخصوصيّة الغامضة للرسّامين، التي من خلالها يقومون بنقلِ أغلبِ مشاعرهم الخاصّةِ وملامحهم الخارجيّة إلى الموضوعِ الذين يشتغلونَ عليهِ. وهكذا كان استنساخِ الجزءِ السّفلي من وجهي بشكلٍ واضحٍ حيثُ يتمُّ المزجُ بين العاطفة والصّدق والكرامة بشكلٍ متناغمٍ.

قدّم **ك**. بما لا يدعُ للشكِّ في عينيَّ معاناتهِ وذعره حتّى، من خلالِ نظرتهما الثاّقبةِ والمتجمّدةِ. ينبعُ منهما الجنونُ من عمقهما مع صلابة الرّوح العميقةِ التي تتخبّطُ في وحدةٍ. كلُّ تلك الأشياء التي كان يرسمها كانت جزءا منّي.

"هل هذا أنا؟.". تساءلتُ بينما كان وجهٌ مريعٌ في اللّوحة، مليء بالتّناقضاتِ يحدّقُ نحوي "صديقي، أنا لا يمكنني أن أهنّئكَ بهذه اللّوحةِ. لا أعتقدُ أنّها لوحةٌ ناجحةٌ".

"إنّها أنتَ أيّها العجوز! لقد رسمت بشكلٍ جيّدٍ. أنت تنقدها بطريقة خاطئةٍ. أين يمكنني أن أعلّقها؟."

شرعَ ذلكَ الشّابُ يثرثرُ مرّة أخرى كما لو كانَ غرابًا. كلّ ذلك كان بسبب لوحتهِ البائسةِ كي تحفظَ لفترة أخرى. آهِ أيها الشّاب المتهوّر، آه أيّها الشّاب السّعيد! لم أقمع نفسي هنا من أن أطلق مزحةً صغيرة وذلك كي أقدّم درسا لشاب يثقُ في نفسهِ ولهذا سألتهُ بابتسامةٍ:

"حسنًا أيّها الرّسام، ما الذي تعتقدهُ؟. فهل أنا قاتلٌ أم لا؟."

أغمضَ الرسّامُ عينًا واحدة ونظرَ إلى اللّوحةِ ناقدًا إيّاها ثمَّ صفّر وأجاب بتهوّرٍ قائلا: "الشّيطانُ يعرفكَ أيها العجوز!"

ابستمتُ وفهم ك ما أرمي إليهِ في النّهاية فقالَ بجدّية مفاجئة:

"أنت تتحدث عن الوجه البشري ولكن هل تعلم أنه لا يوجد شيء أسوأ في العالم من الوجه البشري؟... حتّى في قولهِ للحقيقةِ. حتّى لو صدح بها فهو كاذبٌ، إنّهُ كاذبٌ أيّها العجوز لأن الوجهَ لا يملكُ لغتهُ الخاصّة. هل تعلمُ أيّها العجوز بتلكَ الحادثة الرّهيبة؟... كان ذلك في أحد معارض الصور في إسبانيا. كنت أفحص صورة المسيح، أنتَ تعي جيّدا ما يعنيهِ المسيح - ثمّة عيون عظيمة، ظلام، معاناة رهيبة، حزن،

يأسٌ، حب – حسنا ، في كلمة المسيحِ. صدمتُ بشيء على نحوٍ مفاجيءٍ؛ فجأة ، بدا لي أنه أعظمُ وجهٍ للظلمِ، وجهٌ تعذبه ويلاتُ التّوبةِ أيّها العجوز، لماذا تنظر إليّ هكذا! أيّها العجوز!"

قربتُ عيني من وجه الرّسام وطلبتُ منهُ هامسًا في حذرٍ وذلك سيرا بما تطلّبتهُ تلك اللّحظةُ وأنا أقسمُ الكلمات وأترك كلّ كلمة على حدة:

"ألا تعتقدُ أنّهُ عندما أغواهُ الشّيطانُ في الصّحراء لم يستجب له ولكنّهُ وافقَ وباعَ نفسهُ. هو لم يستجب للشّيطان ولكنّهُ باع نفسهُ. هل تفهمُ ذلك؟. ألا يبدو هذا الأمر في الأناجيل مثيرًا للشّكوك بالنّسبةِ إليك؟.

كان ثمّة خوفٌ شديد صادرٌ عن وجه صديقي الشّاب. كان يدفع صدري بقوّة براحتي كفيه كما لو كان يبعدني. هتف بصوتٍ منخفضٍ بالكادِ أسمعهُ:

"ماذا؟ هل قلتَ إنَّ المسيحَ قد باعَ نفسهُ؟... باع نفسهُ بماذا؟."

فسّرتُ لهُ الأمر بهدوء:

"لقد باعَ نفسهُ يا طفلي لفرضية أن البشر سيؤمنون به؟."

"حسنا؟."

ابتسمتُ. بدت عينا ك. مكوّرتانِ كما لو أنَّ مشنقة كانت تخنقهُ. ولكن فجأة، نتيجة لانعدامِ تقديرهِ للطاعنين في السّنِّ وهو ما كان من سماتهِ، رماني على السّرير بدفعة حادّة ثمَّ قفز إلى الزّاويةِ. عندما كنتُ

أقفُ بهدوء من الموضعِ المحرجِ الذي زجّني فيهِ الشّاب، سقطتُ إلى الخلفِ ووجدتُ رأسي بين الوسادةِ ونهاية السّرير. صرخَ في وجهي بصوت مرتفعٍ:

"ألا تجرؤ على النّهوض! ألا تجرؤ على النّهوض أيّها الشّيطان".

ولكنّني لم أفكّر بتاتًا في أن أرفع قدمي. فقط جلستُ على حافّة السّرير وابتسمتُ ابتسامة لا إراديّة في وجهِ شابٍ ثائر ومتحمّس. حرّكت رأسي بطريقة طبيعية وضحكتُ.

"آهٍ أيّها الشاب! أنت من زجّ بي في حوارٍ لاهوتي".

ولكنّهُ حدّقَ نحوي بعنادٍ، بعينين شاسعتين وظلّ يردّدُ:

"اجلس هناكَ، اجلس هناك! لا، لا!"

"لقد قلتَ لك أيّها الشّاب. أنت لا تتذكّرُ إسبانيا، واللّوحة التي كانت في المعرض! لقد قلت ذلك والآن أنت تنكر الأمر وتسخرُ من شيخوختي الخرقاء!"

فجأة أخفضَ ك. يديهِ وقال بصوتٍ خافتٍ:

"نعم، لقد قلتُ ذلك، لكنّك أيّها العجوز.."

لا أتذكّرُ ما الذي قالهُ بعد ذلكَ. من الصّعب أن أتذكّر الثرثرة الصبيانية التي تصدر عن هكذا نوعٍ من الصبية، ولكن للأسف لقد كان

شابًّا ذكيا فعلا. أتذكّر فقط أن صداقتنا انتهت وأنّه صافحني بحرارة وعبّر لي عن امتنانهِ.

لقد نجحتُ أيضا في إقناعِ السّجانِ بأنّ اللّوحة كانت لرجلٍ يشبهني عندما كنتُ في غرفةٍ أخرى في مكانٍ آخر كمكتبِ السّجنِ. والآن، اللّوحةُ معلّقةٌ في حائطِ زنزانتي. لوحةٌ تقومُ بكسرِ رتابةِ الجدرانِ النّقيّةِ.

لنغادر الآن الرّسام الذي رحلَ بعيدًا مع لوحة السّجانِ وسأكملُ سردَ حكايتي.

الفصلُ السّابعُ

مثلما كان لي شرفُ أن أخبرَ قارئي من قبل، لقد بنى الصّفاءُ الرّوحي في داخلي حلقة معتبرة من نساء ورجالٍ عاشقين. بثقةٍ في النّفسِ سأتحدّثُ عن السّاعاتِ الجميلةِ التي دارت فيها محادثاتنا العذبةُ التي أسمّيها بكلِّ تواضعٍ "محادثاتي".

من الصّعب أن أثبت استحقاقي للأمر، لكنّ أغلب من يزورني، كانوا يكنّون لي المحبّة والاحترام، وقلّة هم الّذين يجادلونني في الأمر، أتوسّط الغرفة عادة على كرسيّ يوفّره لي المراقب، يحيطني جمهوري الّذي كانت غالبيّته من النّساء، وهذا في صالحي، فأنا أميل إلى القلوب الصّادقة، ولأنّني أمتلك حسّا أدبيّا محترما، وأعرف بعض شروط الخطابة ولوازمها، فقد كان لي تأثيري على السّامعين، ليجعلوا منّي قدوة وليتّخذوا من حكمتي سراجا ينير حياتهم ويقودهم إلى السّعادة.

أقول بصراحة ودونَ أدنى تواضع زائف. لقد كانت هناك محاضرات أعتبر نفسي فيها في موضعِ تمجيد وأنا أخاطبُ جمهوري وخصوصا النّساء السّيئات، وهي حالة مزاجية من التحريض الشديد التي تحولت إلى هستيريا من الضّحك والدموع. بالطبع لست نبيا. أنا مجرد مفكر متواضع، ولكن لن ينجح أحد في إقناع عاشقاتي السّيدات المعجبات أنه لا وجودَ لمعنى نبوي وأن لا أهمية لأيّ خطاباتٍ.

أتذكر إحدى المحاضرات التي جرت قبل شهرين. في الليلة السابقة لم أتمكن من النوم بشكل سليم مثلما اعتدتُ النّوم؛ ربما كان ذلك يعودُ ببساطة إلى البدرِ المكتملِ الذي يمارسُ تأثيرهُ على النوم وينهكهُ ويعكّرُ صفوهُ. أتذكر بشكل غامض الإحساس الغريب الذي عايشته عندما ظهر هلال القمر الباهت من نافذتي فقامت المربّعاتُ الحديدية بتقطيعه بخطوط سوداء مشؤومة إلى مربعات صغيرة من فضّةٍ..

عندما بدأت في إلقاءِ المحاضرة شعرت بالإرهاق وميلٍ إلى أن أجلسَ صامتًا بدلَ الدّخولِ في نقاشٍ. ما رأيتهُ ليلا أزعجني. ولكن عندما رأيت تلك الوجوه العزيزة، تلك العيون المليئة بالأمل والحماسِ من أجلِ الحصول على مشورة صادقةٍ؛ عندما رأيت أمامي أن الحقل الغني قد تمّ حرثهُ بالفعلِ ولم يبق شيء غير انتظار البذرة الجيدة كي يتمَّ زرعها، بدأ قلبي يحترق بالسعادة والشفقة والحب وأنا أتجنب الإجراءات الشكلية التي ترافق الاجتماعاتِ، فرفضتُ الأيدي الممدودة لتحيتي ولجأت إلى الجمهور الذي كان غاضبًا على مرأى مني. ولكن رغم ذلك قدّمَ لي مباركتهُ من خلال إيماءة تبينتُ من خلالها الطّريق التي تؤدّي إلى العظمة المميّزة.

قلتُ: "تعالوا نحوي، تعالوا إليّ؛ لقد رحلتم بعيدًا من تلك الحياة. هنا يكمنُ منزلٌ هادئٌ، تحتَ حمايةِ المشبكِ الحديدي المقدّس، في قلبي المفعمِ بالحبِّ، ستجدون الرّاحة والهدوء. أطفالي الأحبّاء، قدّموا إلي أرواحكم الحزينةَ، المتعبة من المعاناة وسأغلّفها بالنّور. سأحملها إلى تلكَ

الأراضي الكريمة، الّتي لا تغرب فيها شمس الحقيقة الأبديّة مطلقاً. كثيرون شرعوا في البكاءِ الآن، ولكن، كان الوقت مبكّرًا من أجلِ الدّموعِ فقاطعتهم بإيماءةِ وواصلتُ:

"أنت، يا فتاتي الحبيبة. يا فتاتي الّتي أتت من العالم الذي يسمّي نفسهُ حرًّا. أيّ ظلالٍ حزينةٍ تنامُ في وجهكِ الجميل والسّاحرِ! وأنتَ أيّها الشّاب المتحدّي، لماذا وجهك شاحب هكذا؟. لماذا أرى ذلك بدلاً من رؤيةِ نشوةِ النّصر، الخوفُ من الهزيمةِ في عينيك المتعبتين. وأنتِ، أيّتها الأمّ الصّادقةُ، أخبريني، أيّة ريحٍ جعلت عينيك حمراوين؟. أيّة مطرٍ جلدت وجهكِ الّذّابل؟. أية ثلوجٍ زرعت بياضها على شعركِ الذي تعوّد أن يكونَ ليلًا؟."

لكنَّ البكاء والتّناهيد أغرقَا كلامي، ورغم ذلك، قلتُ ما في نفسي دونَ شعورٍ بالعارِ. أنا بنفسي أطلقتُ دمعة غادرةً من عيني. دون أن أسمحَ للاهتياجِ الذي يتملّكني بأن يسكتني كلّيا. ناديتُ بصوتٍ صارم وألمٍ صادقٍ:

"لا تبكوا لأنّ أرواحكم مظلمة ومصابةٌ بحظٍّ عاثرٍ، أعمتها الفوضى وقلّم الشّك جناحيها؛ قدّموها إلي وسأقدّمها قربانًا للنّورِ، نحو النظام والعقل. أنا أعرف الحقيقة. لقد تصورتُ العالم! واكتشفتُ الغرضَ من مبادئهِ العظيمةِ! لقد قمتُ بحلِّ تلكَ المعادلة المقدسة للمشبكِ الحديدي! أطلب منكم الآن أن تقسموا – أقسموا لي بالحديد البارد، أنّكم سوفَ تعترفون لي دون خجل أو خوف من كلّ أفعالكم،

وأخطائكم وشكوككم، وكل الأفكار السرية لأرواحكم وأحلامكم ورغباتكم الحبيسةِ في أجسادكم!"

نداءاتٌ كثيرة تعالت: "نحنُ نقسمُ! نحنُ نقسمُ! أنقذنا! أظهر لنا الحقيقة! خذ خطايانا على عاتقكَ! أنقذنا! أنقذنا!"

عليّ الإشارة إلى حادثة حزينةٍ وقعت أثناء إلقاء المحاضرةِ. في اللحظة الّتي بلغت فيها المتعةُ قمّتها وفتحَت فيها القلوبُ أبوابها واستعدّت كي تحرّر نفسها من كلّ الأعباء، صرخ شابٌّ ما بقوّة وقد كان متجهم الوجه وغاضبا وقد وجّهَ نفسهُ مباشرة نحوي:

"كاذبٌ! لا تنصتوا إليه!"

سيصدّق القارئ المتلهّفُ بسهولة أنّني نجحتُ بمجهودٍ كبير في إنقاذ الشاب المتهور من غضب المستمعين. لقد أهانَ أهمّ شيء ذا قيمة للإنسان. إيمانهُ بالجمالِ والأهدافِ السّامية للحياةِ. النّساء عاشقاتي هجمن على الشّاب المجنون في حشدٍ كبير يردن ضربهِ. ولكن، تذكّر أنّ توبة مذنبٍ واحدٍ تزرعُ سعادة كبرى في روحِ القسِّ خير من عشرة رجالٍ صالحين. حملتُ الشّابّ جانبا كي لا يكون في وسعِ أيِّ شخصٍ سماعنا ودخلتُ في محادثة مقتضبةٍ معهُ.

"هل لقّبتني بالكاذبِ يا بني؟."

تحرّكَ في داخلهُ نوعٌ من الحنوِّ. أصبحَ الشّابُّ مرتبكًا وأجاب بتردّدٍ:

"أعذر لي قسوتي، ولكن بدا لي أنّك لا تقولُ الحقيقةَ".

"أنا أتفهمكَ يا صديقي. من المؤكّدِ أنّ نشوة النساء القصوى قد أثارتكَ وأنتَ رجلٌ مرهف الحس ولا تميلُ إلى التصوّف الباطني. أنتَ تتوهّم أنّني فرويد. لا، لا تعتذر. أنا أتفهّمكَ. ولكنّني أتمنّى أن تفهمني، خارجَ مستنقعِ الخرافاتِ، خارجَ دوّامةِ الأحكامِ المسبقةِ والمعتقداتِ التي لا وجودَ لها. أريدُ أن أقودَ أفكارهم الضّالة وأن أضعها فوقَ قاعدةٍ صلبةٍ من التفكير المنطقي. المشبك الحديدي الذي أشرتُ إليهِ ليست علامة صوفيّة. هي فقط مجرّد صيغةٍ بسيطة وصادقة. صيغة رياضيّة. بالنّسبةِ إليكَ كرجلٍ حسّاسٍ، سوفَ أفسّرُ لك برغبةٍ منّي هذه المعادلة. المشبكُ رسمٌ بيانيٌ لكلِّ القوانين التي تقود الكون. وهي التي تلغي الفوضى ويعوضها بنظامٍ حديدي قاس منيعٍ ومنسي من قبل البشرية. وأنتَ كرجلٍ ذكي ستفهمُ الأمر بسهولةٍ".

"عفوًا. لم أفهمكَ، إذا كنتُ ستسمحُ لي باستفسارٍ، لماذا تركتهم يقسمون؟."

"صديقي، إنَّ روحَ الرّجلِ تؤمنُ بنفسها حرّة ولكنّها تعاني باستمرارٍ من حرية مزيفةٍ وبهذا هي تغلقُ أغلالًا على نفسها ومن هذه الأغلال الكراهية، تبدو الأغلالُ اعترافا يحملُ الشّرف كمعنى. هل ستقدّمُ إلي هذه الكلمة التي تعني الشّرف؟."

"نعم،سأفعلُ".

"بهذا أنتَ تكدحُ فقط من أجلِ الدّخولِ في علاقة انسجامٍ مع العالم أين يتحدّدُ كلُّ شيء بالقانون. أليست الوعود صخرة تسقطُ، الوعودُ التي تسمّى قانون الجذب؟."

لن أخوض في التفاصيل حول هذه المحادثة والمحادثاتِ الأخرى التي تلت ذلك. أصبح ذلك الشاب العنيد والحرُّ الذي أهانني ولقّبني بالكاذب أحد أشدّ أتباعي حميمية.

عليَّ أن أعودَ إلى الآخرين. أثناء الفترةِ التي كنتُ أتحدّثُ فيها مع الشّاب، بلغ النّدم في أتباعي السّاحرين أوجها. لم يكونوا صابرين كي ينتظروني، لقد بدؤوا في إقناعِ الواحدِ للآخر في نشوة بالغة، بأن يجعلوا لكلِّ بيتٍ حديقةٍ أين يمكنُ لسربِ عصافير أن يغرّدَ دفعة واحدة. وحينَ عدتُ قام كلّ واحدٍ فيهم بتسليم روحهِ القلقة إلي.

بمرور الأيّام وتواليها، تتصارعُ فوضى مريعة في أرواحهم مع ميولٍ كبير إلى الانسجامِ والنّظامِ؛ كيف يمكنُ للصراع الدّموي بين الأكذوبةِ الأبدية والحقيقة الخالدة، وعبر طرقٍ لا يمكنُ تصوّرها أن يبلغَ الحقيقة، تلك الحقيقة التي تتحوّلُ بدورها إلى أكذوبةٍ. وجدتُ في روحِ الإنسانِ كلّ قوى العالمِ ولم أجد أيّة قوّة من تلك القوى في حالةِ سباتٍ، وفي كلِّ دوّامة تتحوّلُ الرّوحُ إلى نافورةٍ يبدو مصدرها هاوية في بحرٍ تبلغُ قمّتهُ السّماء. كلّ كائنٍ بشري قرأتهُ ورأيتهُ كان مثل معلّمٍ قوي وغني أقام حفلةً تنكّرية في قصرهِ، وأنارها بأضواء كثيرة، فأتت أقنعة غريبة من كلِّ مكانٍ، بينما كان المعلّمُ يحييها وينحني لها بكياسةٍ، وعبثًا كان يسألُ من

هم يا ترى؟. بينما كانت أقنعةٌ جديدة وغريبة ومريعةٌ تصلُ إلى المعلّمُ فينحني ويحييها بكياسة أكبر، وهو يترنّحُ من التّعبِ والخوف. كانوا يضحكون ويهمسون بكلماتٍ غريبةٍ حول الفوضى الأبديّة كلّما أتوا وهم يلبّونَ نداء المعلّمِ. أمّا الأضواءُ فقد كانت مضاءة في القصرِ، ومن بعيد تتراءى النّوافذُ المنارةُ فتقومُ بتذكيرهِ بالحفلةِ وهو ينحني بكياسة أشدّ وبسعادة أكبر حتّى. سيفهمُ قارئي المتلهّف بسهولة أنّهُ إضافة إلى الإحساس بالخوف الّذي خضتُ معهُ تجربة، غمرتني السّعادة وأنا أنظرُ إلى الفوضى الأبديّة وهي تنهزمُ والترنيمة القوية للتناغم الصّافي ترتفعُ منتشرة في السّماوات.

لا يمكنني أن أتذكّر العروض المتواضعة التي يسعى من خلالها أتباعي الطّيبون إلى التعبير عن مشاعر الحب والهيام التي في دواخلهم دون أن يتملّكني إحساس بالفخر. لستُ خائفا من رسمِ ابتسامة على شفاه قرّائي، إذ أشعرُ بأنَّ المشهدَ كوميديّ — سأقول إنّ من بين الهدايا التي جلبت لي في البداية كانت هناك غلالٌ، وكعكٌ وجميع أنواع اللحوم. ولكنّي أخشى، مع ذلك، ألا يصدقني أحد عندما أقول إنني رفضت هذه الهدايا بالفعل وفضّلتُ احترام نظام السّجن بكل صرامة.

في المحاضرةِ الأخيرة، قدّمت إلي امرأة جليلة سلّة من ورودٍ طرية. ولكنّني ندمتُ على رفض تلك الهديّةِ.

"اعذريني، ولكنَّ الورود أيضًا ممنوعة في نظامِ السّجن. أقدّرُ جيّدًا رحابةِ صدرك. أنا أقبّلُ يديكَ أيتها السّيدةُ. ولكنّني مجبرٌ على رفضِ

الورودِ. أنا أمشي في طريق شائكةٍ ومصيري فيها أن أنكرَ ذاتي. لا يجبُ أن أملأ عيني بجمالٍ عابرٍ يرتدي الوهم، ويتراءى لي من تلكَ الزّنابقِ السّاحرة والورود".

بالأمس زارتني امرأة أخرى وقدّمت إليّ صليبا من عاجٍ ذا قيمة وهو تقول إنَّ ذلك ما ورثتهُ من عائلتها. لم أكن مبتليًا بالنّفاقِ ولهذا قلت للمرأة الكريمةِ وصارحتها إنّني لا أؤمنُ بالمعجزاتِ.

قلتُ: "ولكنني في الوقتِ نفسه، أنظرُ باحترامٍ تامٍّ إلى من يلقّبونهُ بمخلّصِ العالمِ وأنا أقدّرُ جيّدا خدماتهِ الجليلة للإنسان. إذا قلتُ لكِ سيّدتي، إنّ هذا الكتابَ كانَ من أفضلَ الكتب لديّ إلى درجةِ أنّهُ لم يمضِ يوم ولم أفتحه وأسحبهُ بقوّةٍ وشجاعةٍ ستفهمين بذلك أنَّ هديتكِ الجميلة لم تقع بين أيادٍ حقّةٍ. من الآن فصاعدًا، بفضلك، تلاشت عزلتي الحزينة؛ لم أعد وحيدًا. أنا أباركِ يا ابنتي".

لا يمكنني أن أضيّعَ فرصة الإشارةِ إلى الأفكارِ الغريبة الّتي تملّكتني وكانت نتيجة للصليب الذي علّقَ بجانبِ البورتريه خاصّتي. كان شبحًا؛ كان الجرسُ يقرعُ بقوّةٍ خارجَ الحائط في كنيسةٍ مخفيّةٍ وهي تدعو المؤمنين كي يجتمعوا؛ من بعيد، فوق حقلٍ مهجور تكسوه الأعشابُ المرتفعةُ، كان ثمّة مشرّد يتهادى بعيدًا ويغيبُ في مكانٍ ما كما لو كان نقطة سوداء صغيرة. كان الجوّ هادئا في السّجنِ كهدوء مقبرةٍ. حدّقتُ بعيدًا وبانتباهٍ في ملامحِ المسيح التي كانت هادئة وسعيدة ومتماثلة معهُ.

ونتيجةً لسلوكي الذي تكوّنَ طيلة سنواتِ العزلةِ التي خاطبتُ فيها أشياء ساكنة بصوتٍ مرتفعٍ، قلتُ إلى الصّليبِ المتجمّدِ في مكانهِ:

"مساء الخير أيّها المسيح. أنا سعيدٌ بالتّرحيب بكَ في زنزانتي. ثلاثتنا هنا الآن. أنتَ، أنا وذلك الشيء الذي ينظرُ من الحائطِ. آملُ أن نتمكّنَ من العيش في سلام وانسجامٍ. إنّهُ ينظرُ في صمتٍ وأنت صامتٌ بدوركَ وعيناكَ مغلقتانِ. سأتحدّثُ من أجلنا نحنُ الثلاثة وستكونُ تلك علامة على كونِ الطّمأنينة التي في داخلنا لن تموت".

كانا صامتين وأنا أواصلُ خطابي مع البورتريه:

"إلى أينَ تنظرُ بانتباهٍ وغرابةٍ يا صديقي الغريب ورفيقَ زنزانتي؟. في عينيكَ أرى لغزًا وعتابًا. هل يمكنكَ أن تتجرأ على عتابهِ؟. أجبني!".

افترضتُ أنَّ اللّوحة قد أجابتني فواصلتُ بصوتٍ مختلفٍ بتعبيرة صارمةٍ وحزنٍ لا محدود:

"نعم، لقد عاتبتهُ. المسيحُ، المسيحُ! لماذا وجهك صافٍ هكذا وسعيدٌ؟... لقد تجاوزتَ فقط حافّة المعاناة البشرية كما لو كنت على حافّة الهاوية. وفقط كان زبدُ الأمواج الدّامية والموحل هو ما يتحسّسك. هل تأمرني كإنسانٍ بأن أغرقَ في جوفٍ مظلمٍ؟. جلجثك[1] عظيمة

---

(1) **الجلجثة** اسم يشير إلى مكان يقع خارج القدس ويعتقد بحسب الإنجيل أن المسيح صلب عنده وتعود التسمية إلى اللغة الآرامية والتي تعني موقع الجمجمة.

أيّها المسيح ولكنّها موقّرة جدًّا وصغيرة وتفتقدُ إلى ضربةٍ واحدة. الذّعر من الضّياعِ!"

هنا، قاطعتُ خطابَ البورتريه الشّخصي في غضبٍ.

"كيفَ تجرأ على ذلكَ، كيف تجرأ على الحديث عن الضّياع في سجننا؟."

كانا صامتين ولكن فجأة دون أن يفتحَ عينيهِ، بدا المسيحُ أشدُّ قربًا فأجابني:

"من يعلمُ الألغاز التي تكمنُ في قلبِ المسيحِ؟."

انفجرتُ ضاحكًا، سيفهم قارئي الموقّرُ بسهولة هذه الضحكة. لقد بيّنت أنّ متخصّصا في الرياضيات، في حالةٍ صحو وهدوء، يحملُ موهبة شعرية ويمكنهُ أن يشكّلُ مسرحياتٍ كوميدية مهمّةٍ.

لا أدري كيفَ ستنتهي كلّ هذه الأشياء إذا قمتُ للتوّ بصياغة إجابة مدوّية لرفيقي في السّجنِ مع ظهور السّجان الذي قدّم إليّ الطّعام وقاطعني فجأة. ولكن يبدو جليًا أنَّ وجهي يحملُ علاماتِ السّعادةِ ولذا سألني الرّجل بعطفٍ شديد:

"هل كنتَ تصلّي؟."

لا أتذكّرُ بمَ أجبتهُ.

الفصلُ الثامنُ

وقعت محنةٌ كبيرةٌ في سجننا يوم الأحد الماضي: الرّسّامُ **ك**. الذي يعرفه القارئ الآنَ، أنهى حياتهُ منتحرًا عبرَ القفز من فوق الطّاولةِ وتهشيمِ رأسهِ على الأرضيّة الصّخريّة. السّقوطُ وقوّةُ الضّربة كانت مدروسة بعنايةٍ من قبلِ الشّابِ المشؤومِ إلى درجةِ أنَّ جمجمتهُ انقسمت إلى نصفينِ. حزنُ السّجانِ كانَ لا يمكنُ وصفهُ. ناداني إلى مكتبهِ دونَ أن يصافحني وعاتبني بشدّةٍ وفي غضبٍ، موجّها لي أشدّ العباراتِ إيلامًا لأنني خدعتهُ. ولكن، عادَ إليهِ الهدوء من جديد بعدَ اعتذاراتٍ صادرةٍ من القلبِ ووعودٍ بأن لا تتكرّر مثل هذه الحوادث مرّة أخرى. وعدتهُ أن أقومَ بصياغةِ مشروعٍ يمكّنُ من متابعة المجرمين ويجعلُ من فرضية الانتحار أمرًا مستحيلًا. زوجة السّجان المبجّلةِ، التي لم تكتمل لوحتها الشّخصية بعدُ، كانت حزينة لموت الرّسام أيضا.

بالطّبع لم أنتظر هذه الهديّة إذ أنّ **ك**. قبل أيّامٍ قليلةٍ من إقدامهِ على الانتحارِ، كان قد أثار في داخلي شعورًا بالارتباك. عندما دخلَ زنزانتهُ ذات صباحٍ وألقى عليّ التحية، لاحظتُ في ذهولٍ أنّهُ كانَ يجلسُ أمامَ لوحتهِ ويقومُ برسمِ وجوهٍ بشريةٍ.

تساءلتُ في حذرٍ: "ما الذي يعنيهِ هذا يا صديقي؟... ماذا عن صورة المساعدِ الثاني؟."

"لقد أخذها الشيطانُ؟."

"ولكنّكَ.."

بعدَ توقّفٍ تأمّلتُ في حيرةٍ ثمَّ قلتُ:

"لقد وجدت لوحتكَ للحارس نجاحًا عظيمًا. حتّى أنّ البعض ممن رأوها قالوا إنَّ الشّنبَ الأيمنَ، بطريقةٍ ما، أقصرُ من الأيسر.. نعم أقصرُ ولكن عمومًا، لقد وجدوا أنّك عثرت على نقاط التشابهِ بنجاحٍ".

وضعَ **ك**. قلمهُ جانبًا وقالَ في هدوءٍ:

"أخبر سجّانكَ أنّني لن أرسمَ هذه النّفاياتِ الّتي تملأ السّجنَ مطلقا".

بعدَ تلكَ الكلماتِ لم يكن أمامي ما أفعلهُ غير مغادرتهِ وكانَ ذلكَ ما قرّرتهُ. ولكنَّ الرّسامَ الّذي لا يمكنهُ أن يتخلّى عن اندفاعهِ، أوقفني بيدهِ وقالَ لي بحماسهِ المعتاد:

"فقط فكّر في ذلك أيها العجوز، يا لهُ من رعبٍ! يوميًا يظهرُ أمامي وجهٌ قبيحٌ جديد. تجلسُ تلكَ الوجوه وتحدّقُ فيّ بعيني ضفدع متأهّب. ما الذي عليّ فعلهُ؟. في البدايةِ ضحكتُ -إلى درجة أنّني أحببتُ ذلك- ولكن عندما حدّقت فيّ تلك العينين كان الرّعبُ قد تملّكني وتوهّمت نقيقها".

بالفعلِ، كان ثمّة خوفٌ معيّن وجنونٌ حتّى إذ كان في عيني الرّسام نوعٌ من الجنونِ الذي قادهُ إلى قبرهِ قبل الأوان.

"أيّها العجوز، إنّهُ لأمرٌ ضروري أن يكون لك شيء جيّدٌ. هل تفهني؟."

"وماذا عن زوجة السّجان؟. أليست."

عليَّ أن أتجاوز في صمتٍ التّعابير غير اللّائقة التي تطرّق من خلالها إلى المرأة في نشوة كبيرة. ولكن عليّ الإشارةُ إلى أنّهُ إلى مدى بعيدٍ، كان الرّسامُ محقًّا في تشكّياتهِ. كنتُ حاضرا مرّاتٍ عديدةٍ في جلساتٍ عديدة ولاحظتُ أنّ جميعَ من جلسوا أمام الرّسام كي يرسمهم كانوا يتصرّفون بطريقة غير طبيعية. كانوا صادقينَ وساذجينِ في آنٍ، واعين بأهمّيةِ موقعهم ذاك ومقتنعين بأنّ ملامحَ وجوههم ستخلّدُ في لوحةٍ سيكونُ لها إشعاعٌ. بالغوا بطريقةٍ ما في القيمِ التي كانت متماثلةٍ مع مراكزهم العليا في السّجنِ.

شيء ما أشبهُ بانفجارِ قنبلةٍ، تعبيرٌ مبالغٌ فيهِ صادرٌ عن سلطةٍ صارمةٍ، ووعيٌ جليٌ بالأهمّية التي هم عليها وازدراءٌ كامنٌ في العيون... كلّ هذه الأشياء كانت تشوّهُ وجوههم الأنيسة. ولكنّني لم أتمكّن من تفهّم المعنى الكامن في تلك الملامحِ المريعة التي أوجدها الرّسامُ كي يخلق ابتسامة على وجوههم. لقد شعرت بالسّخط تجاه الموقف السطحي الذي مرّ به الرّسّامُ الذي كان يعتبر نفسه موهوبًا ويتوفّر على درجةٍ من

الحسّ دون أن يلاحظ أن شرارة إلهية كانت تلمع في عينِ كل واحد منهم.

في سعيهِ نحو جمالٍ فائقٍ مرّ بذهول عبر الجماليات الحقيقية التي تملأ روحَ الإنسان. لا يمكنني أن أقاوم شعوري بالحزنِ تجاهَ هؤلاء البشر منكودي الحظّ مثل **ك**. بسبب البنية الغريبة لأدمغتهم. كانوا على الدّوامِ يديرون أعينهم إلى الجانب المظلم بينما توجدُ سعادةٌ كبيرة وضوءٌ يشعُّ في سجننا!

للأسفِ عندما قلتُ هذا ل ك. واجهني بنفسِ الإجابة النمطية والبذيئة:

"سيأخذُ الشّيطان ذلك!"

كلّ ما كان في وسعي فعلهُ هو أن أرفعَ كتفي. ولكن فجأة غيّر من لكنةِ صوتهِ ومن درجة تحمّلهِ. بدا لي الرسّامُ جادًّا بطرحِ سؤالٍ بدا لي حسبَ رأيي غير لائق:

"هل تكذب أيّها العجوز؟."

كنتُ مندهشًا بالطّبع.

"هل كذبت؟."

"حسنًا، فليكن ذلك حقيقة إذا أردت؟. أنا أبحثُ وأفكّرُ. لماذا تقول هذا الكلام؟. لماذا؟."

قارئي المتسامحِ الذي يعلمُ جيّدًا أنّ الحقيقة كلّفتني، سيتفهّم بسهولةٍ حجم السّخطِ الذي أعانيه.

تعمّدت النبس بمثل هذه الجملِ الجريئة وغيرها من الجملِ المتقلبة كي أظهرَ حجم الحقد وعدم الثقة وعدم الاحترام الّذي يجب عليّ أن أمرّ بهِ في طريق المعاناة الشّاقّةِ.

أصرَّ بوقاحةٍ:

"لدينا ما يكفي من ابتساماتكم. حدّثني بوضوحٍ، لماذا تتحدّث بهذه الطريقة؟."

أجبتُ حينها وقد اشتعلتُ غضبًا:

"هل تريدُ أن تعلمَ لماذا أنطقُ بالحقيقةِ؟. لأنّني أكرهُ الكذب الّذي ارتكبتهُ كلعنةٍ أبديّةٍ! لأنّ القدر جعلَ منّي ضحيّة للظّلمِ، وكضحية أخذ على عاتقهِ الخطيئة العظمى للعالمِ ومعاناتهِ الكبيرة، أرغبُ أن أشيرَ إلى موطنِ الإنسانِ. أنتَ شخصٌ أناني، لا تعلمُ في هذا العالمِ إلا نفسكَ وفنّك البائس، أمّا أنا فأحبّ الإنسان".

تصاعدَ غضبي وشعرتُ بالعروقِ التي في وجهي تتورّمُ.

"أنتَ رسّامٌ مجنونٌ وبائسٌ، تلميذٌ تعيسٌ يتخبّطُ في علاقةِ حبٍّ مع الألوان! الكائناتُ البشريةُ تمرُّ من أمامكَ وأنت لا ترى غير أعينهم الشبيهة بأعينِ الضّفادعِ. كيف يمضي بكَ لسانكَ إلى قولِ مثل هذه الأشياء؟. آه لو نظرتَ لمرّة واحدةٍ إلى الرّوحِ البشرية! لاكتشفت أن هناكَ

كنوزا من الحنوِّ والحبّ والإيمانِ الصّادقِ والتواضع المقدّس. ولكن بالنّسبة إليكَ، بما أنك رجل وقح، سيبدو لك الأمر كما لو كنت تدخل معبدا منيرا مضاءً. ولكن بالنّسبة إليكَ، تنطبقُ عليكَ مقولةُ: لا تعرض لؤلؤكَ أمام خنزيرٍ".

كانَ الرّسّامُ صامتًا وقد صعقَ بغضبي وكلامي المستهتر. وأخيرا تنهّد ثمّ أجابني:

"أعذرني أيّها العجوز؛ أنا أثرثر بالطّبع ولكنّني شخصٌ بائسٌ ووحيد. بالطّبع أيّها العجوز الحبيب، كلّ ما قلتهُ صحيحٌ حولَ الشرارةِ الإلهيّة والجمال ولكنّه، حذاء لامعٌ جميلٌ أيضا. لا أستطيعُ، لا أستطيعُ! أنا فقط أفكّر في هذا الأمر! كيف لرجلٍ يحملُ شوارب كالتي يحملها؟. أن يلومني على قصر شاربهُ الأيسر!"

ضحكَ مثلَ طفلٍ وهو يدفعُ تنهيدةً مضيفًا:

"سأقومُ بمحاولةٍ أخرى. سأرسمُ المرأة. فعلًا ثمّة شيء جميل فيها. بالرّغم من أنّها في النّهاية بقرة".

ضحك مرّة أخرى وهو يحملُ خوفا من أن يحذفَ بكمّهِ اللّوحة التي رسمها. ولكنهُ بحذرٍ وضعها في الزّاوية.

هنا فعلت ما توجّبَ عليّ فعلهُ. أمسكتُ باللّوحةِ وحطّمتها إلى شظايا بضربة قويّةٍ. اعتقدتُ أنّ الرّسامُ سينقضّ عليّ بسرعةٍ ولكنّهُ لم يفعل. بالنّسبة إلى عقلهِ الضّعيف، بدا ما أقدمتُ عليهِ نوعا من الكفر،

شيئا مرعبا، وخارقا إلى درجةِ أنَّ شفتيه اللتينِ بدتا ميّتتين لم تنطقا بكلمةٍ.

سأل بصوت منخفضٍ: "ما الذي فعلتهُ؟. لقد كسرتها؟".

رفعت يدي وأجبتُ باتّزانٍ:

"أيها الشاب المجنون، لقد فعلتُ ما كنتُ سأفعله لقلبي إذا أراد أن يهتكني ويخدعني! أيّها الشّابُّ البائس، إنّ فنّكَ يخدعكَ. ألا ترى أنّك بلوحاتكَ التي ترسمها، تسمحُ للشّيطان بأن يرسم وجوها ويعلّقها أمامكَ؟."

"نعم. الشّيطان!"

"لم أفهمكَ في البداية عندما كنتُ على مسافةٍ من فنّكَ ولم أفهم شوقك. ذعركَ الناتج عن تشتتك. ولكنني حين دخلتُ إلى زنزانتكَ ولمحتُ عملكَ المدمّر قلتُ لنفسي: من الأفضلِ أن لا يرسمَ أبدًا وهو على هذه الحالةِ. أنصت لي رجاء".

حينها عرضتُ لأوّلِ مرّةٍ المعادلةَ المقدّسة للمشبكِ الحديدي الذي قسّم الأبديّة إلى مربّعاتٍ صغيرةٍ وبذلكَ أخضعها لسلطته. كان **ك**. ينصتُ إليّ بمشاعرهِ وهو ينظرُ بذعرِ رجلٍ جاهلٍ، إلى علاماتٍ بدت لهُ معقدة ولكنها لا تختلف عن العلاماتِ التي تستعملُ في المسائلِ الرّياضية.

قال في النّهاية وهو يقبّلُ يدي بشفتيهِ الباردتين: "أنا عبدكَ أيها العجوز".

"لا، ستكون تلميذي المفضل يا بني. أنا أباركَ".

بدا لي أنّ الرّسّام قد تمّ إنقاذهُ. صحيح، لقد كان ينظر إليّ بسعادةٍ كبيرة، يمكنُ تفسيرها على أنّها علامة احترامٍ عظيم كنتُ مصدر ولادتها، ولهذا رسمَ لوحةَ زوجة السّجان بتلكَ الدّرجةِ من الحماسةِ إلى درجةِ أنّ المرأة المحترمة كانت تتحرّكُ بصدقٍ. يبدو الأمرُ غريبًا لو قلتُ إنّ الرّسام قد نجح في جعلِ ملامحِ المرأة جميلة على نحو غريب، وهي البدينة المسنّة إلى درجة أنَّ السّجان الذي تعوّدَ على وجهِ زوجتهِ، تملّكتهُ سعادةٌ كبيرة برؤية صورتهِ الجديدة التي تشكّلت عليها. ولهذا مضى كلُّ شيء بسلاسةٍ إلى أن ظهرت الكارثةُ على نحوٍ مفاجئ، ذلك الرّعبُ الكاملُ الذي كنتُ الوحيدُ الذي عرفتهُ.

لا أرغبُ في مواصلةِ سردِ نقاشاتٍ لا أهمّية لها. أخفيتُ على السّجانِ ما حدث عشيّة وفاةِ الرّسام إذ قامَ برمي رسالةٍ في زنزانتي تفطّنتُ إليها فقط في الصّباحِ. لم أحافظ على تلك الوثيقة ولا أتذكّر حتّى ما أخبرني بهِ ذلكَ الشّابُّ البائسُ في رسالةِ الوداعِ؛ أعتقدُ أنّها كانت رسالةَ شكرٍ على مجهودي لإنقاذهِ. كتبَ أنّهُ نادمٌ بصدقٍ وأنَّ تداعي قوّتهِ لم يسمح لهُ بالاستفادةِ من تعاليمي. ولكن ثمة جملة رسّخت انطباعًا عميقًا في ذاكرتي، وستفهمُ سبب ذلكَ حينَ أكرّرها بكلِّ تلك البساطةِ المريعةِ الّتي تحملها:

"**أنا راحلٌ بعيدًا عن سجنكَ**" هكذا تقرأ الجملةُ.

وبالفعلِ، رحلَ بعيدًا. هنا الحيطانُ، هنا النّافذةُ الصغيرةُ في البابِ، هنا السّجنُ ولكنّهُ ليس هناكَ، لقد رحلَ بعيدًا. بناءً على ذلكَ، أنا أيضًا يمكنني الرّحيلُ بعيدًا عوضَ إضاعتي لسنوات عديدة في صراعٍ هائلٍ، عوضَ التّخبطِ في مخاض اليأسِ، عوض أن تنهكَ قوايَ من الذّعرِ وأنا أقفُ في وجهِ الألغاز التي لم أجد لها حلّا حتّى الآن، عوضَ أن أخضعَ العالمَ لذهني وإرادتي. في وسعي أن أتسلّقَ الطّاولةَ وفي لحظةِ ألمٍ واحدةٍ سأكونُ حرًّا؛ سأنتصرُ على الأقفالِ والجدرانِ، على الحقيقة والكذبِ، على الفرحِ والمعاناةِ. لن أقولَ إنّني لم أفكّر في الانتحار قبل الآن كوسيلةٍ للهروب من السّجنِ، ولكن الآن، تبدو الفكرة أمامي، لأوّل مرّة، على درجة كبيرة من الجاذبيّةِ. فكرةٌ تتجسّدُ في نوبةِ قلبٍ متعبٍ، لا أرى سببا لإخفاء ذلك على قارئي مثلما لم أخفِ عنهُ قيمي الجميلة. ربّما في لحظةِ جنونٍ، وفي لحظة واحدة سأنسى السّجن وغاياتهِ. أشعرُ بالعارِ وأنا أقولُ هذا، رغمَ المعادلة التي صمّم عليها المشبك الحديدي الذي تخيّلتهُ وتحكّمتُ فيهِ بنوعٍ من الصّعوبةِ. صنعتُ مشنقةً بمنشفتي بهدف خنقِ نفسي. ولكن في اللحظةِ الأخيرةِ، عندما كانَ كلُّ شيء جاهزا، وكان من الضّروري أن أدفعَ الكرسي جانبًا، سألتُ نفسي: ولكن أين أنا ذاهبٌ: أنا ذاهبٌ إلى الموت. ولكن ماهو الموت؟. والإجابة كانت: أنا لا أعرفُ الموت.

تلكَ التّأمّلات المقتضبةَ كانت كافية بالنسبة إلي، وبضحكةٍ مريرةٍ أطلقتها في وجه ضعفي، قمتُ بفكِّ المشنقة من على عنقي. مثلما كنتُ مستعدًّا كي أطلقَ تناهيد الحزنِ قبل دقيقة من الآن، أجدُ نفسي اللحّظة أضحكُ، أضحكُ مثلَ سيّدةٍ وأنا أكتشفُ فخًّا آخر، وُضعَ أمامي من طرفِ قدرٍ فاسدٍ، ولكنّني تجنبتهُ ببراعةٍ. آهٍ، كم من فخاخٍ في حياةِ الإنسانِ! مثلَ صيّادٍ ماكرٍ، يمسكُ بهِ القدر الآن بطعمٍ مغرٍ أساسهُ الحقيقةُ، بليلِ الكراهية الدّاكنِ، بشبحِ الحياةِ وبشبحِ الموتِ.

حبيبي الشّابُّ، مجنوني الرّائعَ، رفيقي السّخيف، من أخبركَ أنَّ سجننا ينتهي هنا، **من أخبركَ أنّكَ حين تخرجُ من سجنٍ لا تسقطُ في سجنٍ آخر**، ستجدُ صعوبةً في الهروبِ منهُ؟... لقد كنت متسرّعا يا صديقي، لقد نسيتَ أن تسألني سؤالا ما أخبرتكَ بهِ. كنت قد أخبرتك أن قانونَ القهرِ يهيمنُ على ما تسميه عدم الوجود والموت هو من يفرضُ سطوتهُ على ما تسميه الحياة والوجود. فقط المجانين والمحتضرونَ من يؤمنون أنّهم وضعوا نهاية لأنفسهم كي يرتدوا شكلا آخر على الفور.

هكذا تأمّلتُ وأنا أضحكُ على الانتحارِ الأحمقِ، المدمّرُ السّخيفُ للقيود التي تشدّنا نحوَ الخلودِ. وهذا ما قلتهُ لنفسي وإلى رفيقيّ الصّامتين اللذان كانا معلّقين دونَ حراكٍ على الجدار الأبيضِ لزنزانتي:

"أنا أعتقدُ أنَّ سجننا خالدٌ. ما الذي تقولانه بخصوص هذا الأمر يا صديقيَّ؟..."

لكنّهما كانا صامتين. فانفجرتُ بضحكةٍ قوية، أيّ شركاء معي في هذه الزنزانةِ! خلعتُ ملابسي وقدّمتُ لنفسي نومةً هانئة. في حلمي رأيتُ سجنًا ملغزًا آخر وسجّانين بأجنحة بيضاء على ظهورهم، ومدير السّجنِ شخصيا. لا أتذكّر ما إذا كانت هناكَ نوافذُ في البابِ أم لا ولكنّني أعتقدُ أنَّ هناك نوافذ. أتذكّر أنّ شيئا ما كعين النسر قد سلّط عليّ باهتمامٍ وحبٍّ. قارئي المتسامح سيفهمُ بالطّبعِ، أنني أمزحُ. لم أحلم مطلقًا. ليس من عادتي أن أحلم.

دونَ أمل في أنّ يتفهم آمر السّجن الذي سيطرت عليهِ فكرةُ تنفيذ الأوامر فكرتي المتعلقة باستحالة الهروب من السجن ويتقبلها. حصرتُ نفسي وأنا أصوغُ تقريري هذا، في الإشارةِ إلى حلولٍ عديدة يمكنُ من خلالها تجنّبُ الانتحارات، فشل آمرُ السّجن في ملاحظة النّقاطِ الضعيفةِ لمشروعي وقام بمعانقة يدي بحرارة وهو يعبر عن امتنانه باسمِ كلّ من في السّجنِ.

في ذلكَ اليوم كان لي شرفُ أن أشربَ كأسًا من الشّايِ لأوّلِ مرّةٍ في منزلِ السّجانِ بحضورِ زوجتهِ الطّيبةِ وأطفالهِ اللّطيفين الذين خاطبوني ب"جدّي". الدموعُ التي تكوّنت في عيني، بالكادِ تعبّرُ عن المشاعر التي تملّكتني.

بطلب من زوجة آمر السجن التي كان لديها اهتمام بالغ بي، ربطت قصة جرائمي التراجيدية التي قادتني بطريقة لم تكن متوقّعةً ومريعة إلى السّجن. لا يمكنني العثور على تعابير قوية بما يكفي – لا وجودَ لتعابير

قوية بما يكفي في لغة البشر- كي أضفي سمة معيّنة، ليس فقط على المجرم المجهول الذي قتل ثلاثة أشخاص عديمي القوّة بل على ذلك الشّخصِ الذي خدعهم بوحشيّةٍ في نوبةِ غضبٍ.

مثلما أظهرت التحقيقاتُ ونتائجُ تشريحِ الجثّةِ، قامَ المجرمُ بتوجيهِ طعناتٍ أخيرةٍ بعد موتِ الضّحايا. إنّهُ أمرٌ ممكنٌ جدًّا، أن يكون الرّجل مخمورًا بمشاهدةِ الدم، تخلّى عن وظيفتهِ كإنسانٍ وأضحى وحشًا، ابنا للفوضى، ابن الرّغباتِ المظلمةِ والمريعةِ. ولكن بالطّبعِ، على المجرمين أيضا أن يؤدّوا واجباتهم. كانَ الأمرُ مميّزًا إلى درجةِ أنَّ المجرمَ، بعد إقدمهِ على الجريمةِ، شربَ النّبيذ وأكلَ البسكويت. بعض تلك الأشياء تركَت على الطّاولةِ مع علاماتٍ طبعت بأصابعهِ الملطّخة بالدّم. ولكن كان ثمّةَ شيء مريعٌ جدًّا، لم يتمكّن عقلي من تفهّمهِ ولا حتّى تفسيرهُ: بعدما أشعلَ المجرمُ سيجارةً لنفسهِ. تحرّكَ على نحوٍ غريبٍ وبكلِّ لطفٍ، أشعلَ سيجارةً ووضعها بين أسنان أبي المغلقة. ذكرتُ هذه المعطياتِ لسنواتٍ طويلةٍ. فتمّ محو أغلبها بيد الزّمنِ. والآن، وأنا مع مستمعيَّ المذعورينَ، الذين لن يصدّقوا حتميّة وقوعِ مشاهدَ مريعةٍ كتلكَ. شعرتُ بالشحوب وهو ينتشرُ على وجهي وشعري ويرتعدُ على رأسي. في نوبةِ انفجارِ حزني وغضبي، نهضت من على الكرسي واستقمتُ بكاملِ جسدي وصرختُ:

"العدالة على هذه الأرضِ عاجزةٌ في أغلبِ الأحيانِ، ولكنّني أتوسّلُ إلى العدالةِ السّماويّةِ، أتوسّلُ إلى عدالةِ الحياةِ التي لا تغفرُ

أبدًا. أتوسّلُ إلى كلّ القوانين العليا التي تسيّرُ الإنسان على أملِ أن لا يهرب المتّهمُ من عقابهِ المستحق! من عقابهِ!"

كنتُ أتحرّكُ بتناهيدي التي أطلقها أمام من كانوا يصغون إلي ويعبّرون عن حماستهم واستعدادهم للعمل على تحريري، وبذلك على الأقل، أستبدلُ حجم الظلم الذي ينهالُ علي. اعتذرتُ وعدتُ إلى زنزانتي.

كان من الجلي لي أن جسدي الطّاعن في السّن لم يعد يتحمّلُ مثل هذا الانفعال أكثر؛ إلى جانب ذلك، يصعب على رجلٍ قوي أن يلتقط في مخيّلتهِ بعضَ الصّور دون المخاطرةِ بفقدان عقلهِ. فقط بهذه الطّريقة يمكنني أن أفسّر الهذيان الغريب الذي ظهر أمام عيني المتعبتين في العزلةِ التي كانت تملأ زنزانتي. كنتُ أنظرُ بلا هدفٍ كما لو كنتُ مخدّرًا، في بابٍ موصدٍ بإحكامٍ حتّى بدا لي على نحوٍ مفاجئٍ، أنَّ شخصًا ما كان يقفُ خلفهُ. تملّكني هذا الشعور المخادعُ من قبل. ولهذا لم ألتفت حولي. ولكنني حين التفتُ وجدتُ على مسافةٍ منّي، بين الصّليب والبورتريه الشخصي لي، جسد أبي وهو معلّقٌ في الهواء. من الصّعبِ علي أن أتوغّل في التّفاصيلِ، فالشفقُ أخذ مكانهُ مع الغروبِ، ورغم ذلك، لا يمكنني القولُ بكلّ ثقةٍ إنَّ ذلك كان صورةً لجثّةٍ ولم يكن كائنًا حيًّا بالرّغم من السّيجارة التي كانت تطلقُ دخانها من بين شفتيهِ. كي أكونَ دقيقًا أكثر، لم يكن ثمّةَ دخان من السّيجارةِ، كان هناكَ فقط ضوءٌ أحمر. والمميّزُ في الأمر، أنّني لم أتحسّس رائحة التّبغِ لا في ذلك

الوقت ولا في وقتٍ لاحقٍ. لقد توقّفتُ عن التّدخين منذُ وقتٍ طويلٍ. هنا يجبُ أن أعبّر عن نقطةِ ضعفي، ولكنَّ الوهم كان صاعقًا، لقد بدأت أتكلّمُ مع أوهام. كنتُ أقتربُ أكثر قدرٍ ممكنٍ. لم يتراجع الجسدُ مع اقترابي، ولكنّهُ ظلّ ثابتًا. قلتُ للشبحِ:

"شكرًا لكَ يا أبي. أنتَ تعلمُ كيفَ أنّ ابنكَ يعاني ورغم ذلكَ أتيتَ، أتيتَ لتختبر صدقي. أشكرك يا أبي. مدّ لي يدكَ وصافحني بيدٍ قوية وصلبةٍ. سأستجيبُ لزيارتك التي لم تكن متوقّعة. ألا ترغبُ في ذلكَ؟. دعني أمسكُ بيدك. مدّ لي يدكَ أو سأناديكَ بالكاذبِ!"

مددتُ يدي، ولكنَّ الهذيان الذي في داخلي، رأى أنني لا أستحقُّ. منذُ تلك الفترةِ، وأنا محرومٌ من فرصةِ تحسّس الشّبحِ. الصرخةُ التي أطلقتها والتي أحزنت صديقي السّجانِ، صاغت نوعًا من الارتباكِ في السّجنِ الذي استمرَّ مع الاختفاء المفاجئِ للشّبحِ. كانَ الأمر مفاجئا جدًّا إلى درجة أن الفضاء الذي بدت لي فيه الجثّةُ مريعة بدا أشدَّ رعبًا من الجثّةِ نفسها.

أشياءُ كهذه تدلُّ على قوّة مخيّلة الإنسانِ، ففي فتراتِ المتعةِ، تقومُ بخلقِ أشباحٍ ورؤى وتجعلُ من القاعِ والفراغِ الصّامتِ آهلًا بالبشرِ. إنّهُ من المحزنِ القول إنّ هناكَ بشرا، ممن يؤمنون بالأشباحِ ويبنون بإيمانهم بها نظرياتٍ بلا معنى حول علاقاتٍ معيّنة بين عالم الأحياء والأرضِ الغامضةِ المسكونةِ بالموتى. أفهمُ أنَّ أذن الإنسانِ وعينه يمكنُ خداعهما

ولكن لعقلِ الإنسانِ النيّر والعظيم أن يقعَ في مثلِ هذه الرداءةِ والخداعِ السّخيفِ؟.

سألتُ السجّان:

"أشعرُ بإحساسٍ غريبٍ، ثمّة رائحة سيجارٍ في زنزانتي. هل أنت من تدخّنُ؟."

استنشقَ السّجانُ الهواء وأجاب:

"لا أنا لا أدخّنُ. أنت فقط تتخيّلُ ذلك".

إذا أردتَ أن أؤكّد لك الأمر، هنا يكمنُ دليل رائعٌ حول كلّ ما رأيتهُ.

إذا كان لذلك الكائنُ وجودٌ فهو يوجدُ ويحيا في شبكة عيني فقط.

الفصلُ التّاسعُ

كلّلت مجهودات أصدقائي والسّجّان وزوجته بالنّجاح، وحدث ما لم يكن متوقّعا، وها إنّني أنعم بالحرّيّة من جديد، مرّ على خروجي من السّجن أكثر من شهرين، ومن دواعي غبطتي أن أخبركَ بحصولي على مركزٍ مشرّفٍ مباشرة بعدَ مغادرتي لأسواره، وهو أمر يتجاوز ما كنت أتوسّمه، وأحلم به، لوعيي بتواضع إمكاناتي، وجدت الحفاوة من لدن الصّحافة، بمختلف أشكالها، وتوجّهاتها، وأصبحت حياتي مركزا لاهتمام أرباب القلم، والفوتوغرافيّين ورسّامي الكاريكاتور، والمصورين، (البشر في زمننا هذا مولعونَ بالضّحكِ وبالنكتِ الطريفة)، حبّرت المقالات وعقدت النّدوات وأثّثت البرامج. أجمعت الصّحفِ كلّها على تلقيبي ب"المعلّم". إنّه مدعاة للفخرِ ولهذا تقبّلتهُ بعد بعض التّردّد الممزوج بعرفانٍ عميقٍ. ورغم الإجماع الحاصل فإنّ بعض الصّحفيّين المأجورين لم يستطيعوا أن يكبحوا ما في أنفسهم من قذارة، فقد ركّز أحدهم على تلقيبي في السّجن بالمتعصّب الكاذب رغبة منه في تشويهي، وفي كسب السّبق الصّحفيّ، ودعاني الأحبّة والغيورون إلى مقاضاته عن سفاهاته وادّعائه، فعدلت وترفّعت.

ما ورثته عن والدتي كان كافيا لأعيش الرّفاهية، وأتاحت لي الإقامة بيسر في واحد من أفخم الفنادق، عندي حاشية كبيرة من الخدم وسيّارة، دعّمت شهرتي، وأذاعت صيتي بين النّاس، وقد أمكن لي أن أرتّب أموري الماليّة بكثير من الحنكة. باقات من الأزهار الزّاهية كانت تأتيني من نساء زائراتٍ جميلات تضفي على ركنِ غرفتي مظهر حديقة مزهرةٍ أو قطعة من غابةٍ استوائيةٍ. خادمي، شابٌّ مهذّبٌ ولكنّهُ يتخبّطُ في حالةٍ من اليأسِ. قال إنّهُ لم يسبق لهُ أن رأى تشكيلة كهذه الأزهارِ ولم يسبق لهُ أن اشتمّ روائح كروائحها. لو لم أكن متقدّما في السّن وصارمًا في سلوكي وتعاملي مع زوّاري، لا أعلمُ كم سيمضونَ من الوقت وهم يعبّرون لي عن مشاعرهم. كم من ملاحظاتٍ معطّرةٍ! كم من تناهيد ضعيفة أطلقت وعيونٍ متوسّلة وديعة! حتّى أنّهُ كانت هناكَ فتاة غريبةٌ رائعة ترتدي حجابًا أسودَ، ظهرت مرّاتٍ ثلاثا بطريقةٍ عجيبة وحين علمت أنّ لي زائرين تلاشت بطريقة عجيبة أيضًا.

سأضيفُ أنّني في تلك المرحلة، كان لي شرف أن يتمّ انتخابي كعضو شرفي في منظّماتٍ إنسانية كثيرة " كرابطةِ السّلام ورابطة مكافحة جرائم الأطفالِ ومجتمع أصدقاء الإنسان" وعديد المنظّماتِ الأخرى. إلى جانبِ ذلكَ، وبطلبٍ من محرّر أحد أكبر الصّحفِ مقروئية، سأبدأ الشّهر المقبل بإلقاء مجموعة من المحاضراتِ ولهذا السّبب سأدخل في جولةٍ مع مديري أعمالي الذين يمتازون بنوعٍ من اللّطفِ.

لقد قمت بالتّو بتجهيز أدواتي من أجلِ إلقاء المحاضرات الثلاث وآملُ أن يكونَ قارئي مهتمّا بهذا الأمر. سأقدّم موجزًا لهذه المحاضرات.

المحاضرة الأولى:

الفوضى أو النّظام؟. الصّراعُ الأبدي بين الفوضى والنّظام. الثورة الأبديّة والهزيمة. الفوضى والثّائر. قوّة القانون والنّظام.

المحاضرة الثّانية:

ماهي روحُ الإنسان؟. الصّراعُ الأبدي في روحِ الإنسانِ بين الفوضى عندما تأتي، والانسجام الذي من خلالهِ تكافحُ دون استسلامٍ. الكذبُ كنتاجٍ للفوضى والحقيقةً كوليد للانسجام. قوّةُ الحقيقة وانهيار الكذب.

المحاضرة الثالثة:

تفسيرُ المعادلة المقدّسة للمشبكِ الحديدي.

كما سيرى قارئي، فإنّ العدالة في النّهاية ليست صوتًا فارغًا ولهذا ألقى الآن نتاج معاناتي، ورغمَ ذلك لا أجرؤ على لوم القدرِ الذي كانَ رحيمًا بي. لا أشعرُ بتلك الطمأنينة التي عليّ ارتداؤها. نعم، في البداية كنتُ سعيدًا على نحوٍ إيجابي ولكن سرعان ما أخذ سلوكي ينجر خلف ما يمليهِ المنطقُ من أفكارٍ، وكلّ ذلك الوضوح والصدق الذي كان ينتاب نظراتي أخذ يرقب العالم عبر مشبكٍ محبوك بطريقةٍ علميّة قادتني إلى سلسلة من خيبات الأملِ.

أخافُ أن أقول الآن بيقين لا ريب فيه إن حياة كلّ من يعانقون هذا الكائن الذي يسمّى "**حريّة**" ليست أكثر من خداع ذاتي مستمرّ ومجرّدُ أكاذيبَ. حياةُ هؤلاء البشر، الذين عرفتهم في هذه الأيّام التي مرّت، تسيرُ في حلقة واضحة وهي عبارةٌ عن رواق صلب من أروقة سجننا التي كانت مغلقة كقرص السّاعةِ. يرتفعُ صدقُ عقولهم إلى أعينهم ولا يفهمون المعنى المريعَ لليد التي تظلُّ في عملية صعودٍ إلى أعلى ونزولٍ إلى أسفل في نشاطٍ أبديّ. كلّ امرئ من هؤلاء البشر يشعرُ بهذا، حتّى الحصانُ الذي يشاركُ في السيرك يمكنهُ الشّعورُ بذلكَ. ولكن في لحظةِ عماءٍ غريبةٍ كلّ فردٍ من هؤلاء يؤكّدُ لنا أنّه حرٌّ وينظرُ إلى الأمامِ. مثل طائرٍ أحمق يضربُ نفسهُ على بلّورٍ شفّافٍ إلى أن يستنفد طاقته دون أن يفهم أن هناك عقبةٌ تقفُ في طريقهِ. هؤلاء البشرِ يضربونَ أنفسهم على جدرانِ سجنٍ من بلور يكمنُ داخلهم.

بدا لي أنّني كنتُ مخطئا إلى درجة كبيرةٍ، بدا لي ذلك أيضا، في أهمّية التّحايا التي أتبادلها مع النّاس، التي تبدو لي الآن إحدى القيم التي سقطت منّي بعد خروجي من السّجنِ. بالطّبع، كنتُ مقتنعا في داخلي أنّهم قاموا بتحيّة آمر السّجن، ذلك القائدُ الذي قوّتهُ التجربة، المعلّمُ الذي يأتيهم فقط بغاية إظهارِ الأهمّية التي تكمنُ في تبيانِ اللغز العظيمِ للغاية. وعندما ألقوا عليّ التّحيّة أجبتُ شاكرًا إيّاهم، دونَ أن أرتابَ من المعنى السّاذجِ الذي أسندوه لكلماتهم. ربّما تُغفرُ لي هذه العبارةُ

الفظّةُ. ولكنّني الآنَ منهك القوى وأعجزُ على كتمِ نفوري من الحياة السّاذجةِ ومن أفكارهم ومشاعرهم.

المنافقون الحمقى، إنّهم يهابون الحقيقة ويجافونها، لقد أعياهم صدقي وأرهبهم، لم يستوعبوا أنّي كنت تعيسا في السّجن، ولم يتملّوا حقيقة ما تخفيه تلك البورتريهات، وعلى قارئي أن يتفطّن إلى ما يمثّلونه لي من إزعاج، رغم ما يبدونه في الظّاهر من تملّق، فيبتهجون لرؤيتي، ويبدون الطّاعة والولاء، متمسّحين على أعتابي وهم يدندنون "معلمنا! معلّمنا!"

أصبح الكذب حرفتهم حتّى أنّهم لا يرونه في أنفسهم، فقد أغشيت أبصارهم وبصائرهم، يقلبون الحقّ باطلا، والباطل حقّا، ويتزلّفون، ويؤدّون أدوارهم الهزيلة على ركح خرب، بمساحيق إضافيّة، لا يتقنون وضعها، إنّهم يموتون ببطء، ويفشلون دائما في لعب الأدوار النّبيلة، فأقنعتهم هشّة، ولا يرون وجوههم في المرآة، وإذا رأوها فإنّهم يخادعون أنفسهم.

على قارئي أن يتفهّمَ هذه الأمور النسبية ولا ينسى أنّ التذمّرَ أمرٌ طبيعي مع التقدّمِ في السّنِّ. بالطّبع، أعرفُ الكثير من البشر الأكفياء والصادقين والشجعان. أنا فخور بالقول إنني وجدت في داخلهم تقديرا صادقا لشخصيتي. بمساعدة أصدقائي آملُ أن أكملَ بنجاحٍ صراعي من أجل الحقيقةِ والعدالة. أنا قوي بما فيه الكفاية في سنّ السّتين، وأعتقد أنّهُ لا وجود لقوّة في وسعها أن تحطّم رغبتي الفولاذيّة.

في أوقاتٍ معيّنةٍ، تملّكني التّعبُ بسببِ نمطِ حياتهم العبثي. لم أشعر بطمأنينة تجاهَ الأمر.الوعي بأنّني يمكنني أن أفقد عقلي وأنا في طريقي إلى السّرير جعلني أنسى أن أدير مفتاحَ قفلِ الباب وهذا ما أجبرني على القفز مرّاتٍ عديدةٍ وتحسّس القفلِ بارتعاشة وذعرٍ. منذ زمنٍ ليس ببعيدٍ حدث أن أغلقتُ الباب وأخفيتُ المفتاحَ تحتَ وسادتي، كنتُ على درجةٍ تامّةٍ من الثقة، حولَ أنّ غرفتي مغلقة ولكن فجأة سمعتُ طرقًا على البابِ، فإذا هو خادمي يباغتني بدخوله مبتسما. شعرتُ بأنَّ شخصًا دخلَ روحي. لم يكن ثمة شيء أخفيه، هذا الدخول المفاجئ إلى غرفتي بدا لي سلوكًا غير لائق كي لا أقول شيئا آخر.

أصابتني نزلةُ بردٍ في الأيّامِ الأخيرةِ. ثمّة هواءٌ باردٌ يتسرّبُ من النّافذة ولهذا طلبتُ من خادمي أن يظلّ بجانبي ليلتها. في الصباحِ سألتهُ:

" هل تكلّمتُ كثيرًا في نومي؟."

"لا، أنتَ لم تتكلّم مطلقًا".

"شاهدتُ حلمًا مريعًا، أتذكّر أنّني بكيتُ حتّى".

"لا، لقد كنتَ تبتسمُ كاملَ الوقتِ، وتساءلتُ عن الأحلام الجميلة التي يراها معلّمنا".

من المؤّكد أنّ الشاب الودود قد كانَ مخلصًا لي ولهذا تحرّكتُ بقوّة ذلك الإخلاصِ طيلة تلك الأيّامِ الأليمة.

غدا سأجلسُ كي أكملَ صياغة محاضراتي. لقد تأخّر الوقتُ!

الفصل العاشر

إلهي! ما الّذي حدث لي؟. لا أعلمُ كيفَ أخبرُ قارئي بما حدثَ. كنتُ على حافّةِ الهاويةِ وتلاشيتُ تقريبًا. أيّ قدرٍ قاسٍ ومغو أرسِلَ إلي! نحنُ الحمقى، نبتسمُ دونَ أن نتوقّع أيّ شيء. عندما تُرفعُ يدٌ قاتلةٌ كي تهاجمنا؛ نبتسمُ ثمّ نفتحُ أعيننا المليئة بالرّعب. بكيتُ، بكيتُ. كانت لحظةَ خداعٍ أخرى وكنتُ على وشكِ أن أرمي بنفسي إلى أسفلَ وأنا أعتقدُ أنّني أحلّقُ في السّماء. تحوّلتُ إلى ذلكَ الكائنِ "السّاحرِ والغريب" الذي كانَ يرتدي حجابًا أسودَ وهو الذي أتى نحوي بطريقة غريبةٍ ثلاث مرّاتٍ ولم يكن كائنًا آخر سوى تلك السّيدة ن.؛ خطيبتي السّابقة، حبيبتي وحلمي ومعاناتي.

لكنّهُ أمرٌ! ليغفر لي قارئي المتسامحَ، عدم الانسجامِ الذي طرأ بينَ السّطورِ. ولكنّني رجلٌ في الستيّن من العمر وقوّتي بدأت تنهكني. أنا وحيدٌ. يا قارئي المجهول، كن صديقي هذه اللّحظة، لستُ من حديدٍ. أنصت يا صديقي، سأسعى إلى أن أخبرك بما حدثَ بموضوعيّة، فعقلي البارد والصّافي سيكونُ قادرًا على القيامِ بذلكَ. عليك أن تتفهّم ما سينطقُ بهِ لساني.

عندما أعلنَ خادمي أنّ المرأة الغريبةَ ذات الحجاب الأسود قد أتت مرّة أخرى وأنها تتمنّى رؤيتي. كنتُ جالسًا وأنا منشغلٌ بصياغةِ محاضرتي، مندفعًا بجدّية نحو عملي الملهمِ. ولكن رغمَ ذلك أعترفُ أنّني كنتُ مندفعًا وعلى استعدادٍ لرؤيتها. ولكنّ فضولي امتزجَ برغبتي في أن لا أسيء إليها وأن أستقبلَ الضّيف الذي لم أكن في انتظارِهِ. زرعتُ في وجهي ملامحَ شخصٍ نبيلٍ تماما كتلكَ الملامح التي عادة ما ترتسمُ على وجهي حينَ ألقي التّحيّة على زوّاري، كما أضفيتُ عليها نوعا من الطّرواة بابتسامةٍ تدلُّ على شخصيّةٍ عاطفيّةٍ تتماشى مع الحدثِ. أمرتُ الخادم بأن يفتحَ الباب.

قلتُ باحترامٍ إلى الشّخص الغريب الذي وقف منبهرًا أمامي وهو يضعُ الحجابَ على وجههِ: "أرجوكِ، اجلسي يا ضيفتي العزيزة".

جَلَست.

"بما أنّني أحترمُ تسترِكِ فلن أطلبَ منكِ أن تخلعي هذا الغطاء المحزن من على وجهك. ولكن، **هل يحتاجُ الوجهُ البشري إلى قناعٍ؟**."

أجاب الزّائرُ الغريب منفعلًا.

"حسنًا، سأخلعهُ، ولكن ليس الآنَ. سأخلعه لاحقًا. بدايةً، أودُّ أن أنظر إليك مليًا".

ذلكَ الصّوتُ الهادئُ الصّادرُ عن شخص غريب، لم يعد بي إلى أيّة ذكريات تخصّني. كنتُ مهتمًّا بعمق إلى درجةِ التملّق فكشفتُ لزائرتي

الغريبة كلّ الكنوز التي أخفيتها في ذهني. تلك الكنوز التي كانت عبارة عن تجاربي وموهبتي. بنوع من الحماس، سردتُ لها القصّة المتقلّبة لحياتي وأنرتُ لها كلّ التفاصيل مصدرًا شعاعًا يحملُ الغاية من عيش حياة كحياتي. (في تلكَ اللّحظة ابتعدتُ قليلًا عن التّطرّقِ إلى المادّة التي كنتُ أنجزها في محاضراتي) ألهمني ذلكَ الاهتمامُ الغريب من المرأة الغريبة وهي تنصتُ إلى كلماتي بتناهيد متردّدة وعميقة وبأصابعها المرتعشة النّائمة في قفآزها الأسود. اندفعتُ عبرَ تلك الرّوايةِ التي أسردها ووجدت نفسي أطلق اعترافًا دون اهتمام بسلوكي الغريب أمام زائرة غريبة. لقد فقدت الآن السّيطرة على ذاتها ووجدت نفسها متشبّثة بيدي فدفعتها جانبًا. بكت واستغّلت كلّ لحظة صمتٍ مررتُ بها كي تتوسّلني:

"لا! لا! أرجوك، توقّف! لا يمكنني الإنصاتُ إليكَ!"

في النّهاية مزّقت حجابها وخلعتهُ عن وجهها بعدما كنتُ منتظرًا ذلك، وأمام عيني، ظهرَ وجهها. وجهُ حبيبتي، وجهُ أحلامي، وجهُ أحزاني المريرة التي لا حدود لها. ربّما يحدثُ ذلك الآن، لأنّني أمضيتُ حياتي أحلمُ بها وحيدًا. معها فقط كنتُ شابًّا ومعها أيضًا شاخت أعوامي، أنا أتقدّمُ نحوَ القبرِ.

لا يبدو وجهها طاعنًا في السّنِ أو شاحبًا حتّى. هو الوجهُ الذي توقّعتهُ ورسمتهُ في أحلامي فكانَ مقرّبًا لي بلا نهايةٍ.

ما الذي حدثَ لي؟. لأوّلِ مرّة منذ عشرِ سنوات أنسى أنّ لي وجهًا، لأوّلِ مرّة منذ عشر سنوات أنظرُ في يأس، مثلَ شاب، مثلِ مجرمٍ بيدين حمراويتين، منتظرا عاصفة مميتة.

"أنتَ تراني! أنتَ تراني! إنّها أنا! يا إلهي، لماذا أنتَ صامتٌ؟. ألم تتعرّف إليّ؟."

هل تعرّفتُ عليها؟. لقد كانَ من الأفضلِ ألّا أتعرّفَ على ذلكَ الوجهِ مطلقًا! كان من الأفضلِ أن أكونَ ضريرا على ألّا أراها مرّة أخرى!

"لماذا أنت صامتٌ هكذا؟. كم أنتَ مريع! لقد نسيتني!"

"سيّدتي".

بالطّبع، كان عليّ أن أكمل بهذه الطّريقة، رأيتُ كيفَ أنّها كانت ترتعشُ. رأيتُ أصابعها المرتعشةَ التي بدت كما لو أنّها تتساقطُ. كانت تنظرُ إلى حجابها؛ رأيتُ أنَّ كلمةً أخرى تتعلّقُ بالحقيقة القوية والرّؤية المريعةِ ستتلاشى ولن تظهرَ مرّة أخرى. ولكنّ شيئا غريبًا في داخلي، لم يكن أنا، نطقَ بجملةٍ رديئة وعبثية، رغمَ برودته، قرعت في داخلي غيرة كبيرة وحزنًا كبيرًا:

"سيّدتي، لقد خدعتني. أنا لا أعرفكِ. ربّما دخلتِ من البابِ الخاطئ. أعتقدُ أنَّ زوجك وأطفالك في انتظارك. أرجوك، سيرافقك خادمي إلى العربة في الأسفل".

هل يمكنُ الاعتقادُ أن هذه الكلمات، التي تنطلقُ دفعة واحدة بصوت بارد وصارخ ، سيكون لها تأثير غريب على قلب المرأة؟... ألقت بنفسها باكية بكلّ تلك العاطفة المريرة التي لا يمكنني وصفها وصرخت:

"إذن، أنتَ تحبّني!"

لننس حياتنا التي عشناها، لننس أنّنا كنّا طاعنون في السّن، أنّ كلّ شيء دمّرَ ونثر كالرّماد برياح الزّمن وأنّهُ لن يعودَ مرّة أخرى؛ لننس أنني كنتُ أسمرَ وذراعي كانا مائلين، وأنّ صوتَ عاطفتي يبدو غريبًا حينَ ينطلقُ من شفتينِ طاعنتين في السّنِّ. انفجرتُ بنوع من التّهوّر مطلقا عتابي ولومي.

نطقت شفتاها اللتان بدتا ميّتتين وشاحبتين:

"نعم، لقد خدعتكَ، علمتُ أنّكَ كنتَ صادقًا"

"اصمتي! اصمتي!"

"الكلّ ضحكوا منّي، حتّى أصدقاؤك وأمّكَ التي ازدريتها. الجميعُ خانكَ. أمّا أنا فلقد ظللتُ أردّدُ: إنّهُ بريء!"

آهٍ لو علمت تلكَ المرأة بما كانت تفعلهُ بي بكلماتها! إذا دوّى بوقُ الملائكةِ معلنًا حلولَ يوم القيامةِ وظلّ صوتهُ يتردّدُ في أذني، فلن أكونَ على درجة الذّعرِ التي أنا عليها الآن. ما قيمةُ الصّراخ الصّادر عن بوقٍ يدعو إلى المعركةِ في أذنِ رجل شجاع؟. كان الأمرُ أشبهُ بهاوية تنفتحُ

تحتَ قدمي. كان أمرا أشبهُ ما يكون بهاوية تنفتحُ أمامي، كما لو أنّ بصري مغشيٌّ ببرق أو مذعور بعاصفة. صرختُ منفجرا بنشوة متوحّشة وغريبة:

"اصمتي!"

إذا كان الربُّ هو من أرسلَ المرأة فعليها أن تكونَ صامتة. إذا كانت قد أرسلت من قبل الشيطان فعليها أن تصمتَ أيضًا. ولكن لم يكن ثمّة رب في داخلها ولم يكن ثمّة شيطانٌ ورغمَ ذلك تقاطعني ولا تسمحُ لي بأن أكملَ جملتي. واصلت:

"لا، لن أصمتَ. عليّ أن أخبركَ بكلِّ شيءٍ. لقد انتظرتك منذ سنين. أنصت، أنصت!"

ولكن فجأة رأت وجهي فتراجعت وقد أسرها الخوفُ.

"ما هذا؟. ما الذي حدثَ معكَ؟... لماذا تضحكُ؟. أنا خائفةٌ من ضحكاتكَ! توقّف عن الضّحكِ! لا تضحك! لا تضحك".

ولكنّني لم أكن أضحكُ مطلقا، كلُّ ما في الأمرِ أنّني كنتُ أبتسمُ بنعومةٍ. ولكن لاحقًا قلتُ بكلِّ جدّيةٍ دونَ أن أبتسمَ:

"أنا أبتسمُ لأنّني سعيدٌ برؤيتكِ. حدّثيني عنكِ".

حينها، مثلما يحدثُ في الحلم، رأيتُ وجهها وسمعتُ همساتها الهادئة المريعة:

"أنتَ تعلمُ أنّي أحبّكَ. أنتَ تعلمُ أنّكَ الوحيدُ الذي أحببتهُ طيلةَ حياتي. عشتُ مع شخصٍ آخر وكنتُ وفية لهُ. لديَّ أطفالٌ ولكنّك تعلمُ أنّ جميعهم غرباءُ بالنّسبةِ إلي. هو وأطفالي وأنا، كلّ هذه الأشياء غريبةٌ عنّي. نعم، لقد خدعتكَ واقترفتُ جريمةً في حقّكَ ولكنّني لا أعلمُ كيف حدثَ ذلكَ. كان طيّبا معي وجعلني أصدّقُ أنّهُ كانَ مقتنعًا ببراءتكَ ولكنّهُ لم يخبرني بالحقيقة وبطريقتهِ تلكَ كنتُ من نصيبهِ".

"أنتِ تكذبين!"

"أقسمُ لكَ. لسنةٍ كاملةٍ كانَ يلاحقني ولا يتحدّثُ إلّا عنكَ. إلى درجة أنّهُ بكى ذاتَ يومٍ حين أخبرتهُ عنكَ وعن معاناتكَ وعن حبّكَ".

"ولكنّهُ كان يكذبُ!"

"بالطّبع كان يكذبُ. ولكنّهُ في تلكَ الفترةِ كان ودودًا جدًّا تجاهي وطيّبا إلى درجة أنّهُ قبّلني على جبهتي. مضى الوقتُ وصرنا نأتيكَ بالورودِ إلى السّجنِ. وفي يومٍ ما عندما كنّا عائدين من زيارتكَ – أنصت– اقترحَ عليّ فجأة أن نتنزّهَ. كانَ المساءُ جميلًا".

"وذهبتِ معهُ! كيفَ تجرّأتِ على الذّهابِ معهُ؟. كنتِ قد رأيتِ سجني. كنتِ قريبة منّي ورغمَ ذلكَ خرجتِ معهُ. أيّ حقارةٍ هذه!"

"اصمت. اصمت. أعلمُ أنّني مجرمةٌ في حقّكَ. ولكنّني كنتُ مرهقةً ومتعبة جدًّا وكنتَ بعيدا عنّي. عليكَ أن تتفهّمَ هذا الأمر".

شرعت بالبكاءِ وهي تفركُ يديها.

"افهمني. كنتُ مرهقةً ورأى ما كنتُ أشعرُ بهِ وحينها تجرّأ على تقبيلي".

"قبّلكِ! وأنتِ سمحتِ بذلكَ؟. قبّلكِ من شفتيك؟."

"لا، لا! فقط على خدّي".

"أنتِ تكذبين!"

"لا، لا. أقسمُ لكَ".

ضحكتُ.

"واستجبتِ للأمر؟. وكنتما تتنزّهانِ في الغابةِ. أنتِ خطيبتي وحبيبتي وحلمي! كلّ ما حدثَ كانَ في صالحي؟... أخبريني! تكلّمي!"

في نوبةِ الغضبِ تلكَ، نفضتُ كتفيها فتلوّت كأفعى وعبثا حاولت الهروبَ من نظرتي فهمست:

"سامحني! سامحني!"

"كم أنجبتِ من طفلٍ".

"اعذرني."

تخلّى عنّي عقلي وفي نوبةِ غضبي صرختُ وضربتُ الأرض بقدمي:

"كم أنجبتِ من طفلٍ؟. تكلمي أو سأقتلكِ!"

نعم، في الواقعِ قلتُ ذلكَ. يبدو واضحًا أنّني فقدتُ عقلي كلّيًا إذ كنتُ أتوعّدُ امرأة كليلة بالقتل. هي بدورها ظنّت أنَّ وعيدي ذاكَ لم يكن إلا كلماتٍ عابرة فأجابت بتكلّفٍ:

"اقتلني! لديكَ الحقُّ في أن تفعلَ ذلكَ الآن! أنا مجرمةٌ. لقد خدعتكَ. أنتَ شهيدٌ. قدّيسٌ! حين أخبرتني بما حدثَ -هل صحيحٌ أنّكِ لم تخدعيني ولو في أفكاركِ- ولو في أفكاركِ!"

انفتحت الهاوية مرّة أخرى أمامي. ارتعد كلّ شيء. سقطَ كلُّ شيء وصار حلمًا عبثيا. وفي مجهودي الأخير كي أنقذ عقلي الّذي كان يتلاشى، صرختُ:

"ولكنّكِ سعيدةٌ! لا يمكنكِ أن تكوني حزينة؛ لا تملكين الحقّ في أن تكوني حزينةً! وإلا سأفقدُ عقلي".

ولكنّها لم تتفهّم الأمر. بضحكة مريرةٍ، وبابتسامةٍ ميّتةٍ امتزجت فيها معاناتها بجمالها قالت:

"أنا سعيدةٌ! آهٍ يا صديقي، فقط بالقربِ منكَ يمكنني أن أكونَ سعيدةً. منذُ اللحظةِ التي تركتَ فيها السّجن، بدأ النفور يتملّكني من المنزل. أنا وحيدةٌ هناكَ، أنا غريبةٌ عن كلّ شيء من حولي. لو تعلم حجم الكرهِ الذي أكنّهُ لذلكَ الحقير! أنتَ كائنٌ حسّاس؛ من المؤكّدِ أنّكَ لم تشعر أنّك وحيد هناكَ في السّجن، لأنّني كنتُ معكَ هناكَ على الدّوام".

"ماذا عنهُ؟."

"اصمت! اصمت! لو تنصتُ إلى السّعادة التي تتملّكني وأنا أخاطبهُ بالحقير!"

انفجرت ضاحكة وهي تخيفني بتعبيرة موحشة ارتسمت على وجهها.

"فقط فكّر في الأمر! في حياتهِ بأكملها التي عاشها، لم يكن يعانقُ إلّا أكذوبةً. وحين يتمُّ خداعهُ، يسقطُ نائمًا. أنظرُ إليهِ بعينين متوحّشتين وأنا أصرُّ أسناني بنعومة فيتملكني شعورٌ بأنني أضغطُ عليه وألدغهُ بدبّوس".

انفجرت ضاحكة مرّة أخرى. بدت لي كما لو أنّها تقودُ إسفينًا داخلَ عقلي. أمسكتُ برأسي بين يدي وصرختُ مرّة أخرى:

"أنتِ تكذبين! أنتِ تكذبين علي!"

كانَ الحديثُ مع شبحٍ أسهلُ عندي من الحديثِ مع امرأةٍ. ما الذي يمكنني أن أقوله لها؟... عقلي كانَ قاتمًا. كيفَ يمكنني أن أصدّها حينَ قبّلت يدي ووجهي بكلِّ حبٍّ وعاطفة؟... لقد كانت هي، حبيبتي وحلمي وحزني المرير!

"أنا أحبّك!! أنا أحبّكَ!"

صدّقتها وصدّقتُ حبّها. صدّقتُ كلَّ شيءٍ لهُ علاقةٌ بها. ومرّةً أخرى شعرتُ بأنَّ القضبان سوداءُ، فرأيتُ شبابي ثانية. ركعتُ أمامها

وبكيتُ لوقتٍ طويلٍ وهمستُ لها عن معاناتي وعن آلامِ العزلةِ وعن القلبِ المحطّمِ بوحشيّةٍ وعن الأفكارِ المزعجةِ والمشتتة والمشوّهة. ربّتت على شعري وهي تضحكُ وتبكي. وفجأة لاحظت أنّ شعري رمادي فبكت بطريقة غريبةٍ:

"ما هذا الأمر الآن؟. ما الحياة؟. أنا امرأة طاعنة في السّن الآن".

وهي تغادرني، طلبت مني أن أرافقها إلى العتبةِ كرجلٍ شابٍّ فاصطحبتها. قبلَ أن تغادرَ قالت لي:

"سأعودُ إليكَ غدًا. أعلمُ أن أطفالي سيمنعونني ولكن ابنتي ستتزوّجُ قريبًا. أنا وأنت سنرحلا بعيدًا. هل تحبّني؟."

"نعم، أنا أحبّكِ".

"سنرحلُ بعيدا، بعيدًا جدًّا يا حبيبي. لقد أردت أن تقدّم بعض المحاضرات. ولكن لا يجبُ عليك القيامُ بذلك. لا أحبُّ ما تقولُهُ حول المشبكِ الحديدي. أنتَ مرهقٌ. أنتَ بحاجة إلى الرّاحةِ. أليسَ كذلك؟."

"نعم".

"آهٍ، لقد نسيتُ حجابي. احتفظ بهِ، احتفظ كتذكار لهذا اليوم. حبيبي!"

داخلَ الرّدهةِ وفي حضورِ البوّابِ الذي كان ناعسا، قبّلتني. كانت رائحة عطرٍ جديد مختلف عن العطر الذي فاح من رسالتها. كانت ضحكتها الجذّابة أشبهُ بتنهيدة وهي تختفي خلف الباب البلّوري.

في تلكَ الليلة أيقظتُ خادمي وأمرتهُ أن يجمعَ أشياءنا وأن نرحلَ بعيدًا. لن أخبرَ عن مكاني الآن، ولكنّ البارحة والليلة ثمّة أشجار تخشخشُ فوقَ رأسي وأمطارٌ تنقرُ نوافذي. هنا النّوافذُ صغيرةٌ وأشعرُ بأنّني في وضع أفضلَ. كتبتُ لها رسالة طويلة، كتبتُ أشياء لا يجبُ عليّ أن أعيدَ صياغتها. لن أراها مرّة أخرى.

ولكن ما الذي عليّ فعلهُ؟. ليغفر لي القارئ هذه الأسئلة اللّا مترابطة. إنّها أسئلة طبيعيّة في وضعيّة شخصٍ مثلي. إلى جانبِ ذلك، أصبتُ بالروماتيزم وأنا أخوض رحلتي، وهو أمرٌ خطيرٌ ومؤلمٌ لرجلٍ في عمري وهذا ما يعيقُ عمليّة تفكيري في هدوء. لسببٍ أو لآخر، أفكّرُ عادة في صديقي ك. الذي مضى إلى قبرهِ قبل الأوان. بماذا يشعرُ يا ترى في سجنهِ الجديد؟.

غدًا صباحًا، إذا سمحت لي قوّتي، سأقومُ بزيارةٍ إلى حارسِ السّجنِ وزوجتهِ المحترمةِ وسجننا.

الفصل الحادي عشر

أشعرُ بسعادةٍ كبيرةٍ وأنا أعلمكَ يا قارئي العزيز أنّني استرجعتُ قواي الجسدية كما استعدتُ قوايَ الرّوحيّة. في راحةٍ كبيرة خارجَ المدينةِ، وسطَ الطبيعة ومع جمالياتها، وأنا أتأمّلُ في الحياة القرويّةِ البسيطة والصّافية وفي غياب المدينة وضجيجها، أين تدور مئاتٌ من طواحين الهواء وهي تمدّ أذرعها بحماقةٍ أمامَ أنفكَ. العزلةُ الكاملةٌ التي عثرتُ عليها في النّهايةِ، عزلةٌ لا يمكنُ أن يزعجها أيّ شيء؛ كلّ هذه الأشياء أحيت نظرتي تجاه العالم وأحدثت توازنًا فيها. أنظرُ إلى مستقبلي في هدوءٍ وثقةٍ رغمَ أنّهُ لا يعدني بشيء غير قبرٍ وحيدٍ ورحلةٍ أخيرةٍ نحوَ وجهةٍ لا نهايةَ لها. أنا جاهزٌ للقاءِ الموتِ بتلكَ القوّة التي عشتُ بها حياتي كاملة، أجني قوّتي من عزلتي ومن وعيي ببراءتي واستقامتي.

بعدَ تردّدٍ طويلٍ، لا يبدو لي على درجةٍ من الوضوحِ الآن، وجدتُ الحلّ النّهائي في أن "**أبني لنفسي نظامًا سجنيًا على درجةٍ حادّة من الصّرامةِ**". من أجلِ تلكَ المهمّةِ، كانَ عليّ إيجادُ منزلٍ صغيرٍ في ضواحي المدينة، والذي كانَ سيتمُّ تأجيرهُ لسنواتٍ كثيرةٍ ولهذا أجّرتهُ. من خلالِ المساعدة الجليّة للسّجانِ (لا أستطيعُ أن أعبّر عن امتناني لهُ

بما فيه الكفاية بالكلمات) دعوتُ إلى مكاني الجديد أحدَ أهمّ السّجناء تجربةً، ولم يزل حينها شابًّا، ولكنّهُ أشدُّ صلابةً نتيجة لتعاليمِ السّجنِ. استفدتُ من تعاليمهِ ومن دعوتهِ إلى الاستجابةِ إلى السّجانِ المأمورِ. كلّفتُ بعضَ الرّجالِ بتحويلِ إحدى غرفي إلى زنزانةٍ. قدّمتُ لهم المساحةَ والشّكل ومعطياتها الجديدة وآملت أنّ يكونَ حصني الجديد منسجمًا مع مخطّطي. زنزانتي عبارة عن ثماني يارداتٍ على أربع. أربعُ يارداتٍ إلى أعلى، الجدرانُ مدهونةٌ بلونٍ رمادي حتّى الأسفلِ، الجزءُ العلوي من الجدرانِ والسّقفِ يحملان لونًا أبيض، بالقربِ من السّقفِ ثمّة نافذةٌ مربّعة مجهّزةٌ بمشبكٍ حديدي صلبٍ أضحى صدئا مع مرورِ السّنوات. في البابِ المغلقِ بقفلٍ ثقيلٍ وصلبٍ، تصدرُ فرقعةً عالية مع دورانِ المفتاحِ في كلِّ مرّةٍ، كان ثمّة ثقبٌ للمشاهدةِ وتحتهُ نافذةٌ صغيرةٌ، من خلالها يقدّمُ الغذاءُ. أثاثُ الزنزانةٌ عبارةٌ عن طاولةٍ وكرسي وسريرٌ ثبّتَ على الحائطِ؛ على الحائطِ صليبٌ، والبورتراي خاصّتي، والتعاليمُ المرتبطةُ بسلوكِ السّجناء الذي يجبُ اتّباعهُ وقد وضعت في إطارٍ أسودَ؛ في الزّاويةِ توجدُ مكتبة مليئة بالكتبِ. هذه الأخيرةُ بدت مخالفة للانسجامِ الكائنِ في زنزانتي. رفضَ السّجانُ بطريقةٍ إيجابية أن يكونَ العونَ المكتبي خاصّتي وأن يأتي لي بالكتبِ حين آمرهُ. وأن أشغّل مكتبيا بدا الأمرُ فعلًا غريبَ الأطوار. إلى جانبِ ذلكَ، وأنا أكوّنُ مخطّطاتي، وجدتُ معارضةً شديدة، ليس فقط من المتساكنين جيراني هناك الذين اتّهموني مباشرةً بالجنون ولكنّ حتى من قبلِ المثقّفين. حتّى أنّ آمر السّجنِ سعى لفترةٍ من الوقت إلى أن أعدلَ عن الفكرةِ بتعبيرة تشي

بأسفٍ صادقٍ لأنّه ليس في المنصبِ الذي يخوّلُ لهُ أن يقدّمَ لي مكانًا في السّجنِ.

لا يمكنني أن أتذكّر اليومَ الأوّل لسجني دونَ أن أرسمَ على وجهي ابتسامةً مريرةً. مجموعة من الغوغاء والجهلة يصرخون من الصّباح حتّى المساء تحتَ نافذتي وأيديهم مرفوعةٌ عاليًا (زنزانتي في الطّابقِ الثاني) وهم ينهالونَ عليّ بإساءاتهم بلا مبرّرٍ؛ كانت هناك جهودٌ كي يهينوا من معي ويتهجّموا على منزلي حتّى أنّ حجرًا ثقيلا هوى على رأسي. الشرطة التي وصلت في الموعد هي من منعت وقوعَ الكارثة. في المساء، حينَ خرجتُ كي أتنزّهَ قليلا، كان هناك مئاتُ الحمقى والمراهقين والأطفال يتبعونني وهم يصرخونَ ويهمسون ويرمون الإساءاتِ نحوي وبلغت بهم الجرأة أن يرموا الطّين في وجهي. ولهذا، مثلَ نبي مضطهد، أكملتُ طريقي بلا خوف وسط ذلك الجمعِ من المجانين وأنا أجيبُ ضرباتهم وإساءاتاهم بصمتٍ أبي.

ما الذي اجتاحَ هؤلاء المجانين؟. كيفَ ألحقتُ الإهانةَ برؤوسهم الفارغة؟. حينَ كذبتُ عليهم، قبّلوا يدي؛ الآنَ أعدتُ بناءَ الحقيقة المقدّسة لحياتي بكلّ قوّتها وصفائها؛ انفجروا في وجهي بلعناتهم وواجهوني بازدراء ورموا في وجهي الوحلَ. لقد أزعجهم الأمرُ لأنّني تجرأتُ على العيشِ وحيدًا ولأنني لم أطلب منهم العثور على مكانٍ مشترك مع المحتالين.

كم هو أمرٌ شاقٌّ أن تكونَ صادقًا في هذا العالم!

نعم، لقد هزمتهم مثابرتي وثباتي في النّهايةِ. بسذاجتهم المتوحّشة، التي كانَ لها الشرف بمنعهم من تفهّم الأمرِ، شرعوا في السنةِ الموالية بالرّكوعِ أمامي وصاروا يركعونَ أكثر فأكثر تحتي لأنّ انبهارهم صارَ أعظم وخوفهم الذي لا يمكنُ تفسيرهُ صارَ أعمق.

حقيقةُ كوني لم أستجب لتحاياهم ملأتهم سعادة وحقيقة أنني لم أبتسم كإجابة عن ابتساماتهم المتزلفة التي تملؤهم ثقةً بأنّهم مذنبونَ أمامي، وأنهم ارتكبوا خطأ فظيعًا، وأنني على علم بخطيئتهم. لقد فقدوا الثّقةَ في كلماتهم وكلماتِ البشر. بجّلوا كلّ صمتٍ وكلّ لغزٍ. إذا كان عليّ أن أتكلّم على نحوٍ مفاجئ، سأكونُ شخصًا إنسانيّا بالنّسبةِ إليهم وسأخلّصهم من أوهامهم بمرارةٍ. سأصيرُ إنسانًا في نظرِ هؤلاءِ البشر الغرباء الذين سيؤمنون بربّهم حينَ يتحدّثُ. نساؤهم ينظرنَ إليَّ كقدّيسٍ. والنّساء الرّاكعات والأطفالُ المرضى الذين عادةً ما أجدهم على عتبةِ البيت يتوقّعون منّي القليل بلا شكّ، أن أعالجهم. حسنًا، ستمضي سنةٌ أو سنتانِ وسأشرعُ في إنجازِ المعجزاتِ. أشعرُ بالأسفِ لهؤلاءِ البشرِ الغرباء وبدأ الغضبُ يتملّكني أمام الشرور الممزوجةِ في هذه اللّعبة التي يعلمُ حقيقتها إلا المخادعُ. الحقيقة الخادعةُ حولَ ملكات وملوك معينين. يركعون إلى أسفل وهذا ما يعيقني في تكوين شعور بالرأفة. ابتسم في وجهي يا قارئي الرحيم، لن أكبح نفسي من الإغواء ومن تكوين معجزة لها فاعلية أو معجزتين أو ثلاث.

عليّ العودةُ إلى وصفِ سجني.

بنيتُ سجني بالكاملِ الآن وقدّمتُ لسجّاني هذه التّعاليم: عليهِ أن يتقيّد في معاملتهِ معي بقوانين السّجنِ بكلِّ حدّةٍ وإذا قامَ بذلكَ سيرث كلّ ثروتي وذلك بمشيئتي أو أنّهُ سيفشلُ في المهمّةِ ويخسرَ الرّهان. يبدو أنّ وضعَ هذه المسألة أمامي بكلِّ هذا الوضوحِ ستجدُ بعضَ الصّعوباتِ. ومع ذلك، يجبُ أن أسجنَ بسببِ تجاوزي لتعاليم السجن ولهذا رفض هذا الرّجلُ الزّج بي في السّجن رفضًا قاطعًا. وحينَ هدّدتهُ بالعثورِ على شخصٍ آخرَ، اضطر إلى تنفيذ ما أمرته به. كان يغلقُ الباب دائما في الوقتِ المحدّد، في البداية تغاضى عن واجبهِ وشرعَ يراقبني من خلالِ ثقبٍ في الباب وحين حاولت اختبار صرامته باقتراح تغيير في القَاعدةِ. في يومٍ ما قبضتُ عليهِ وقلتُ لهُ:

"صديقي، ببساطةٍ، أنتَ شخصٌ مجنون. إذا لم تراقبني وتحرسني بجدّية سأهربُ إلى سجنٍ آخر وآخذُ إرثي معي. مالذي ستفعلهُ حينها؟."

أنا سعيدٌ بإخبارِكَ في وقتنا الحاضرِ إنّ كلّ نقاط سوء الفهم قد تمّ تجاوزها وإذا كان ثمّة شيء أشتكي منهُ فستكونُ تلكَ الصّرامةُ والجمود. الآن وقد ارتدى سجّاني تلك الروح التي يفرضها مركزه الذي هو فيه، صار يعاملني بحدة وصرامة، ليس من أجل الربح بل من أجل المبدأ. ولهذا، سجنني في بداية الأسبوع أربعا وعشرين ساعة لتجاوزي بعض التعاليم والتي بدا لي أنّني لم أقترفها وكان الاعتراض عليها نوع من الظلم. لم تكن لي القوّة كي أخبره:

"في النّهاية سأطردكَ من هنا. لا يجبُ عليكَ أن تنسى أنّكَ خادمي".

"قبلَ أن تطردني بعيدًا، سأسجنكَ".

أجابني ذلك الرجل الفاضل.

"ولكن ماذا عن المال؟. هل تعلمُ أنّكَ ستحرمُ منه بهذه الطريقةِ؟."

"هل تعتقدُ أنّني بحاجة إلى أموالكَ؟. سأعطيكَ كلّ ما أملكُ من مالٍ إذا كان في وسعي أن أتوقّف عن تقمّص هذا الدّور الذي أقومُ بهِ الآن. ولكن ما الذي يمكنني فعلهُ وأنتَ تتجاوزُ القاعدة ولا أجدُ أمامي إلا سجنكَ".

قواي منهكةٌ ولا أجدُ القوّة على وصفِ السّعادة التي تسري في داخلي أمامَ ايماني بأنّ فكرةَ الوعي بنداءِ الواجبِ قد دخلت عقلهُ المظلمَ. والآن، أنا في لحظةِ ضعفٍ وأريد أن أغادر سجني وسجّاني الواعي لن يسمحَ لي بذلكَ. صرامتهُ المشعّةُ التي تلمعُ في عينيهِ المدوّرتان يظهرانِ لي بوضوحٍ أنّني مهما هربتُ سيلحقُ بي وسيعيدني إلى مكاني. والآن، ذلكَ المسدّسُ الذي غالبا ما كانَ ينساهُ حينَ يخرجُ، أضحى ينظفه كل يوم وسيقومُ بواجبهِ في حالة قرّرت الهروب.

لأوّلِ مرة طيلة هذه السنوات، تملّكني النّومُ فسقطتُ على الأرضِ في زنزانتي المظلمةِ راسما على وجهي ابتسامة سعيدة وأنا أكتشف أن مخططي توج بنجاح كامل ومرّ من مملكة العجائب إلى الحقيقة الصارمة

والقاسية. والخوفُ الذي انتابني وأنا أخلدُ للنومِ في حضور السجان، الخوف من نظرته الحازمة، من مسدّسهِ، ومن رغبتهِ الهادئة في سماعِ كلمةِ تمجيد له أو الدعوة إلى ابتسامةٍ ترتسم بين شفتيه، يتردّد صداها في روحي كأغلالي الصّلبة المتناسقةِ، أغلالي الأبدية والأخيرة.

هكذا أكملتُ سنواتي الأخيرة. مثلما كنتُ في وقتٍ سابقٍ، صحتي جيّدةٌ وروحي الحرّةُ صافية. دع البعض يخاطبوني بالمجنون ويضحكون علي؛ في عمائهم الذي يثير الشّفقةَ دعهم ينظرون إلي كقدّيس وينتظروا مني المعجزات؛ أن أكونَ في نظرِ البعضِ رجلًا مستقيما وفي نظر البعض الآخر كاذبا ومخادعا. أنا على علم بنفسي وأعلمُ من أكون ولا أطلبُ منهم أن يتفهّموا الأمر. وإذا كان هناك أناسٌ سيتّهمونني بالخداعِ، وبالسّفالةِ، إذ ثمّة حمقى مقتنعون إلى اليوم أنّني اقترفت تلك الجريمة، فلن يتجرّأ أحدٌ على اتّهامي بالضّعفِ، لن يتجرأ أحدٌ على القيامِ بواجبي مثلما أقومُ به أنا الآنَ منذُ البدايةِ وحتّى النّهاية، ظللت صلبا ومتماسكًا ومتعقلا أمام أناس ومريعًا أمام آخرين. يمكنني أن أوقظَ في البعضِ حلمًا بطوليا يستمدُّ من قوّة الإنسان اللّانهائيةِ.

توقفتُ من فترةٍ طويلةٍ على استقبال الزّائرينَ، ومع موتِ آمرِ السّجنِ، صديقي الوحيدُ الحقيقي، الذي كنتُ أزوره أحيانًا، مُزّقَ آخرُ رابطٍ بيني وبين العالمِ. مازلت أنا فقط مع سجّاني المتوحّشِ الذي كان يشاهدُ كلّ حركة أقومُ بها بريبةٍ، وذلك المشبكُ الذي لم يزل في حضنٍ

حديدي يحجبُ الأبدية، تلكَ كانت حياتي. وأنا أسلكُ الشّارعَ الأخيرَ في صمتٍ. تقبّلتُ ركعاتِ البشرِ في نفورٍ باردٍ.

أفكّرُ في الموتِ أكثر، ولكن حتّى قبيل الموت، لم تنحني نظرتي التي لم تعرف خوفًا. إذ كانت مصدر راحةٍ أو صراعًا مجهولًا ومريعًا. أنا كليلٌ ورغم ذلك على استعدادٍ لقبولهِ.

وداعًا يا قارئي العزيز! مثلَ شبحٍ غامضٍ ظهرتَ أمام عيني ومررتَ، تركتني أمام وجه الموتِ والحياة. لا تغضب لأنّني في أزمنةٍ معيّنة خدعتكَ وكذبتُ، أنتَ أيضا لو كنتَ في مكاني لكذبتَ. ومع ذلكَ، أنا أحبّكَ بصدقٍ، وبصدقٍ أتوقُ إلى محبّتكَ؛ وفكرة شفقتكِ التي تحملها من أجلي كانت عمادًا لي في لحظاتِ الشّقاء وأيّامهِ. أنا أرسلُ لكَ وداعي الأخيرَ ونصيحتي الصّادقة. انس وجودي، مثلما سأنساكَ إلى الأبدِ.

حقلٌ قاحلٌ، تكسوهُ أعشابٌ عاليةٌ، حقلٌ خالٍ من كلّ صدى، يمتدُّ مثلَ سجّادةٍ طويلةٍ نحوَ حائطِ سجننا الذي تحيطُ خطوطهُ السّاحرةُ بمخيّلتي وعقلي. عندما تنيرهُ الشّمسُ بأشعّتها الأخيرة يقفُ سجننا مثلَ ملكةٍ، مثلِ شهيدٍ، حاملًا جراحهُ المظلمة التي زرعتها النّوافذُ المشبكة، بينما الشّمسُ تصعدُ في صمتٍ و فخرٍ محلّقةً فوقَ الهباءِ في حزنٍ. مثلَ عاشقٍ، أرسلتُ كلَّ شكاويَّ وتناهيدي وعتابي وعهودي إليها، إلى حبيبتي، إلى حلمي، إلى حزني المرير والأخير. آمل أن يكون في وسعي البقاء إلى جانبها إلى الأبد، ولكنني هنا، أنظر إلى الخلفِ بينما السّوادُ يقفُ خلفَ إطارِ الغروبِ وينتظرُ.

عدتُ إلى الخلفِ بتنهيدةٍ وصمتٍ، ومضى السّجانُ خلفي محدثًا ضجيجًا، تاركا بيننا خطوتين كي يرى كلّ حركة أقومُ بها.

السّجنُ رائعٌ مع غروب الشمس.

النهاية

سجن بلا سقف

ليونيد أندرييف

ترجمة | منير عليمي

يعتبر ليونيد أندرييف أحد أعظم الأدباء الرّوس في القرن العشرين. اشتغل في أغلب رواياتهِ على الغوصِ في آلامِ الإنسانِ وأسئلتهِ الحارقة. في روايتهِ "سجن بلا سقف" يغلقُ ليونيد أندرييف الزنزانة على القارئ فيفتحُ أمامهُ أسئلة حارقة تنامُ في داخلنا منذ ولادتنا بصرخة عالية لا نعرف مصدرها؛ أسئلة الحب والأمل والعدالة وعلاقتنا بأنفسنا. تتحوّل الجدران في هذه الرواية إلى جدارٍ واحد، يصلبُ فيهِ العالم بين أعيننا مثلما تصلبُ السّعادة في عين باكية أو تصلبُ الإبتسامة في وجهِ صبي يبكي أو تصلبُ غابة في فأسٍ مرفوعةٍ. قد تكتبُ مئات الرّوايات التي تعكس اغتراب الإنسان وحيرتهِ ولكن عندما يكتب ليونيد أندرييف يتوقّفُ كلّ شيء يحيطُ بنا، لكنّ شيئا واحدًا يظلُّ في حركة دائمة، إنّهُ قلب الإنسان المغلف بالمآسي والجراحات.

سجنٌ بلا سقف رواية الإنسان الباحث عن معناه في داخلهِ. حين ينفصل عن كلّ شيء ويظلّ سجنهُ الوحيد ذاتهُ، تلك الذات الممتدّة نحو أفق لا محدودة وتضاريس لانهائية.

الناشر ..

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

ISBN 978-603-03-0522-3

9 786030 305223

صفحة سبعة